الوصايا والحِكَمُ في الشِّعْرِ الجاهليِّ عرضًا وتحليلاً ونقدًا	د. إبراهيم بن محمَّد البطشان قسم اللغة العربية وآدابها كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية جامعة القصيم

على الرُّغم من كلِّ ما سادَ حياةَ الجاهليين من ظلامِ الجهلِ ، والتَّناحُرِ العَصَبيِّ ، ومُمَارسةِ كثيرٍ منَ الرَّذائلِ ، إلاَّ أنَّهم لم يتخلَّوا عن مكارمِ الأخْلاقِ ، وفضَائلِ الأقْوالِ والأفعالِ ، مُستَهْدِين ذلكَ منَ الفطْرةِ السَّليمةِ التي جُبِلَ الإنسَانُ عليها مهما كانَ معتقَدُه.

وقد نَبضَ الشِّعرُ الجاهليُّ بالكثيرِ من مَظَاهرِ هذه القِيَمِ الخُلُقيَّةِ الإنسَانيَّةِ ، ويظهرُ ذلك في أسمَى معَانيه في بابِ الوَصَايا والحكَمِ. فهذا خليفةُ المسلمينَ عمرُ بنُ الخطَّابِ –رضي اللهُ عنه- يستحسنُ شعرَ زُهيرِ بنِ أبي سُلمى ، حكيمِ الشُّعراءِ الجاهليينَ ، فيصِفُه بأنَّه أشعرُ الشُّعراءِ ، ويُعَلِّلُ ذلكَ بأنَّ زهيرًا : ((كَانَ لا يُعَاظِلُ في الكلامِ ، وكانَ يتجنَّبُ وحشيَّ الشِّعرِ ، ولم يمدحْ أحدًا إلا بما فيه))[١] .

وقد يتبادرُ للذهنِ أن تباينًا يشطرُ الشِّعرَ الجاهليَّ إلى مضمونينِ متناقضينِ ، أوَّلهما : أنَّ هذا الشعرَ قد حَفَلَ بتجسيدِ التَّناحرِ القبليِّ والتَّهكُّمِ العصبيِّ ، والانحيازيَّةِ العمياءَ لبني القبيلةِ من قِبَلِ الشَّاعرِ ، وثانيهما : أنَّ هذا الشِّعرَ ضَرَبَ المثلَ في تصويره لشيوعِ الحكمِ والوصايا في الحياةِ العامَّةِ بين العربِ آنذاكَ. فإن كان الأمرُ كذلكَ ، فكيفَ نُصالحُ بينَ هذينِ المفهومينِ المتباينينِ ؟.

لقد سيطرَ على الأدبِ الجاهليِّ ما يَصِفُهُ أهلُ النَّقدِ النَّفسيِّ الحديثُ بأنَّهُ سيطرةُ القيمِ اللاشعوريةِ المستقرَّةِ في وعي الجماعةِ ، والتي تعملُ

على توجيه الأدب توجيهًا نمطيًا قد يخالفُ – أحيانًا – القيـــمَ الكـــبرى ، والمضامينَ والسياقاتِ العامَّةَ للنصِّ الأدبي ؛ فالشِّعرُ الجاهليُّ ، وإن كـــانَ شاهدًا على تفشي روحِ القتَالِ والبغضاءِ والتَّناحرِ بينَ القبائلِ المنتجَةِ لهذا الشِّعرِ على لسانِ مَن يمثِّلها منَ الشُّعراءِ ، لم يتجاهلْ تصويرَ القيمِ الحميدةِ السَّائدةِ في الجزيرةِ العربيَّةِ في تلكَ العصورِ.

وإذا كانتِ الوَصيَّةُ والحِكمَةُ تجتمعَانِ وتفترقَانِ ، بحيثُ قد تـــأتي الوَصيَّةُ دونَ حِكمةٍ ، وقد تأتي الحكمَةُ دونَ وَصيَّةٍ ، وتأتي الحكمةُ عامَّةً ، بينما تكونُ الوصيَّةُ عامَّةً وهي في الأصلِ خاصَّةٌ – فإنكَ واجدٌ كلاًّ مـــنَ الوصيَّةِ والحكمةِ ينهلانِ من معينٍ واحدٍ هو الخبرةُ والتَّجربةُ والرَّغبةُ في إفادةِ الآخرِ وتوجيهِه إلى الخيرِ المأمولِ ، ومن هنا ارتأيتُ الجمـــعَ بيـــنَ المصطلَحينِ دونَ تفرقةٍ ، وفضَّلتُ معاملتهما معاملةً واحدةً.

ولقد شاعَتِ الوصيَّةُ والحكمةُ في الأدبِ الجاهليِّ نثرِه وشـــعرِه ، فكانتَا أنسبَ لونٍ توجيهيٍّ متداولٍ في البيئاتِ القبَليَّةِ التي تحتفـــي برجُـــلِ القبيلةِ ، وتُعلي من قيمِ الرجولةِ والقيادةِ والسيادةِ ، فتجدُ الشَّبابَ والعامَّـــةَ ينهلُونَ مِن قرائحِ الشُّيوخِ ، ويلتصقُونَ بهم ، ويأخذونَ عنهم ، ويتأسَّـــونَ طريقَهم ، فهم لهم المنارةُ المرشدةُ ، والقيادةُ الموجِّهةُ.

إنَّ مَن يتعمَّقُ في دراسةِ الجاهليينَ ، ويطَّلعُ على مناحي حيَواتِهم يرى – وبوضوحٍ – مقدارَ ما وصلَ إليه الشعراءُ والحكماءُ والقـــادةُ مـــنَ النُّضجِ الفكريِّ ((وقد يتبادرُ إلى الأذهانِ أنَّ أولئكَ البدو كانوا أهلَ جهالةٍ وهمَجيَّةٍ ؛ لبُعدِهم عن المدنِ ، وانقطاعِهم للغزوِ والحربِ. ولكنْ يظهرُ ممَّا وصلَ إلينا مِن أخبارِهم أنَّهم كانوا كِبارَ العقُـــولِ ، أهـــلَ ذكـــاءٍ ونَباهَـــةٍ

واختبَارٍ وحنكَةٍ ، وأكثرُ معارفهم مِن ثمارِ قرَائحهم ، وهي تَدُلُّ على صفَاءِ أذهانِهم وصِدْقِ نَظَرِهم في الطَّبيعةِ وأحوالِ النَّاسِ ، ممَّا لا يَقِلُّ عن نَظَرِ أعظَمِ الفَلاسِفَةِ))(٢) .

والجليُّ أنَّ ذيوعَ هذه الأغراضِ في الشِّعرِ الجاهلي يُنْبِئُ عن الحالة الشُّعوريةِ الجماعيَّةِ التي كانت عليها العربُ في تلكَ الأزمانِ ، فالشِّعرُ لم يتعرض لهذه الأغراضِ إلا مستلهماً للوصايا والحكمِ المتواترةِ التي كانت تلوكُها ألسنةُ العربِ ، والتي كانت تنتقلُ من جيلٍ إلي جيلٍ بفعلِ آليات التَّلقينِ العفويِّ. ولهذا السببِ قيلَ : إنَّ الأدبَ الجاهلي يتضمنُ قيمًا خاصَّةً وأخرى عامَّةً ؛ أمَّا الخاصَّةُ فتكمُنُ في المنتجاتِ الأدبيَّةِ المتعلقَةِ بظروفِ العصرِ وأحواله ، وأمَّا العامَّةُ فتشيعُ مع كلِّ نتاجٍ أدبيٍّ يصطبغُ بلونِ الإنسانِ ومجتمعه(٣) .

وإذا كان النقدُ الأدبيُّ الحديثُ والمعاصرُ يصفُ الأدبَ بعامَّةٍ أنه من عطايا الموتى ، وأنَّ النَّصَّ الأدبي متى أُذيعَ بينَ النَّاس ماتَ مؤلِّفُه ، وأنَّ الحديثَ في مضامينه مجرَّدُ قراءاتٍ ((اقتراحية)) و((تداحُضيَّة)) ؛ اقتراحيةٌ لأنَّها تتمُّ دونَ حضورِ المؤلِّف ، وتداحُضيَّةٌ لأنَّ اللاحقَ منها يدحَضُ السَّابقَ ، نقول : إنَّه – على الرُّغم – مِن تصوُّراتِ النقد الأدبي الحديث والمعاصر هذه ، إلا أنَّ بابَ الوصايا والحكم في الأدبِ الجاهليِّ وفي بعضِ الآدابِ الأخرى يَشِذُّ عن هذه التصورات ؛ ذلكَ أنَّ هذه المضامين تُعَدُّ توثيقًا أدبيًّا للمفاهيم ، واستقراءً لحتمياتِ العيشِ التي تفرضها البيئةُ ، واعترافًا بسلطةِ الزَّمانِ وقدريَّةِ المكان.

ولا عجبَ أن تصيبَ هذه الضُّروبُ الخاصةُ مِن الوصايا والحكم

التي تلون بها هذا الشِّعرُ الجاهليُّ حظًا مِن العالمية في العصر الحديث ، فقد نُقِلَ التراثُ العربيُّ إلي كثير من أصقاع الأرض ، فأخذت الآدابُ العالميةُ تحاكيه تارةً ، وتستحضرهُ تارةً أخرى ، مما أدَّى إلى شيوع تلكَ المضامين. فالشَّاعرُ والروائيُّ الروسيُّ الحكيمُ (إيفان بونين ١٨٧٠-١٩٥٣) – مثلاً – لم يتوقف عند استلهامِ مضامينِ الحكمِ والوصايا في الشِّعرِ الجاهليِّ العربيِّ ، بل أخذَ يستحضرُ عظمةَ هذه المضامين ، إلى أن بلغ به الأمرُ مبلغَه حينما عنوَنَ بعضَ قصائده بالبدوي وزينبَ وامرئ القيس[٤].

وإذا حاولنَا أنْ نستَقْرِئَ الحِكَمَ والوَصايَا في الشِّعرِ الجاهليِّ ، فسنجدُ منها ضربينِ اثنينِ :

أوَّلهما : **التَّوجيهَات العامَّة** ؛ وهي تلك القيَمُ الأخلاقيَّةُ التي خاطَبَ بها الشُّعراءُ الإنسَانَ في عُمُومِه ، دُونَ النَّظَرِ إلى شَخْصٍ بعينه.

وثانيهما : **التَّوجيهاتُ الخاصَّةُ** ؛ وهي تلك الفضَائلُ والمآثرُ التي يُوصِي بها الشُّعراءُ ذَويهم مِنَ الأبناءِ وغيرِهم.

ولكنَّ هذه الأخيرةَ – مع خُصُوصيَّةِ المُتلقِّي حينَ عَرضِها – تقتَرِبُ من العموميَّةِ حيثُ تنزِعُ إلى إفَادَةِ الإنسَانِ في كلِّ زمانٍ ومكان ؛ ولذا ارتأيتُ المَزجَ بينهما ، وحَرصتُ على استخلاصِ ما تَحتَويه هذه الوَصايا أو تلكَ الحِكمِ من قيَمٍ مَضمُونيَّةٍ ، وإبرازِ ما تتضمَّنه مِن سِمَاتٍ فَنيَّة.

أولًا : قِيَمُ المضمونِ :

إنَّ النَّاظرَ في الوصَايا والحكَمِ في الشِّعر الجاهليِّ يُلاحِظُ أنَّها احتوَتِ الكثيرَ منَ القِيَمِ الأخلاقيَّةِ التي من شأنها الارتقاءُ بالإنسانيَّةِ نحوَ السَّعادةِ والفضيلةِ ، ومن أبرزِ هذه القِيَمِ ما يدورُ حولَ : حتميَّةِ الموتِ والمصيرِ ، والشَّجَاعةِ والإقدامِ والبطولةِ ، والبذلِ والعطاءِ ، والحذرِ واليَقَظَةِ والفطْنَةِ ؛ لأنَّ هذهِ الصفاتِ تكسبُ صاحبَها مجداً وشهرةً ، وتُحلُّه مقامَ السِّيادةِ والشَّرفِ والرِّفعةِ والسُّؤددِ والزَّعامةِ والقيادةِ.

حتْميَّةُ الموت :

تَحدَّثَ الشُّعراءُ الجاهليونَ كثيراً عن حقيقَةِ الموتِ باعتبارِهِ للنهايةَ الحتميَّةَ لكلِّ كائنٍ ، وهوَ المُلازِمُ للإنسانِ أينمَا كانَ . والمرءُ يمكنُ أنْ يلحظَ دونَ عناءٍ أنَّ الشِّعرَ الجاهلي يخالفُ حياةَ الأوثانِ ومعتقداتُها في تناولِه لقضيةِ الموتِ. ولقد حاولَ بعضُ الدَّارسينَ والباحثين تناولَ هذه ((الفِصَاميَّة)) التي تفصلُ بينَ الموروثِ الوثني للشَّاعرِ الجاهلي ووعيِه السَّماوي أو الديني أو الفطريِّ لحتميةِ الموت ، فمنهم من ذهب بعيداً ناسباً بعضَ هذا الشِّعرِ أو جلَّه لغيرِ العصرِ الجاهلي كنفرٍ منَ المستشرقين وتلاميذهم في العالمِ العربي كطه حسين ، ومنهم مَن رأى أنَّ تصوراتِ الشَّاعرِ الجاهلي تعدُّ بمثابةِ إعدادٍ إلهي للجاهليين من قِبَلِ المولى – عزَّ وجلَّ – للمستقبلِ المجيدِ الذي سيشرقُ عليهم عمَّا قريب.

((فكلُّ مَا سَادَ الجزيرةَ العربيَةَ من كرٍّ وفرٍّ وتدافعٍ وتلاحمٍ ومقارعةٍ بالسِّنانِ ومجالدةٍ بالسُّيوفِ والسِّهامِ وسفكِ الدِّماءِ – ما كانَ إلا ضرباً مِن ضروبِ التربيةِ النفسيَّةِ والرياضيَّةِ على الصَّبرِ والثَّباتِ في

وجهِ الأهوالِ والشَّدائدِ ، وصقلاً للأخـــلاقِ والعقـولِ ، وشـحذًا للهمـمِ والأفكارِ،... وكان ذلك إعداداً وتوجيهًا من الله تعالى إلى المستقبل الـذي ينتظرهم ، وإرهاصًا لقيادتهم العامَّةِ على البشريةِ))[٥] .

ويبدو الرأيُ الثاني أقرب للصَّوابِ ؛ ذلك أن هذه المضامينَ التـي تقتربُ من المضامين التي نادى بها الدِّينُ الحنيفُ بعـد انصـرام العهـد الجاهليِّ وردَتْ على ألسنةِ كثيرٍ من الشُّعراءِ الجاهليين ، بلْ إنَّكَ واجدٌ ذلك في أشعارِ مَن كانوا على النَّصرانيَّةِ واليهوديَّةِ في الجاهلية . ولعلَّ أُسْقُفَ نجرانَ ، قُسَّ بنَ ساعدةَ ، وهو شاعرٌ كانَ على النصرانيَّةِ ، وتوفي قبـل الرسالةِ بأعوامٍ ، أصدقُ دليلٍ على وثائقيَّةِ هذا الشِّعر الجاهلي ومضامينـه الإنسانيَّة.

وكانَ قُسُّ بنُ ساعدةَ مضربَ المثلِ في الفصاحةِ والبلاغةِ ، وكان يحثُّ قومَه على مكارمِ الأخلاقِ. يقولُ في الموت :

يا ناعِيَ المَوتِ وَالأمـــواتُ في جَـدَثٍ

عَلَيهِـــمِ مِـــن بَقايـــا بَزِّهِـــم خِـــرَقُ

دَعهُم فَإِنَّ لَهُم يَومًـــا يُصـــاحُ بِهِـــم

كمـــا يُنبِّـــه مِـــن نَومَاتِـــهِ الصَّعِـــقُ

حَتّى يَعـــودوا بِحـــالٍ غَـــيرِ حـــالِهِم

خَلقًا جَديدًا كَما مِـــن قَبلِهـــا خُلِقـــوا

مِنهُـــم عُـــراةٌ وَمِنهُـــم في ثِيـــــابِهِم

مِنها الجَديدُ وِمِنهـــا المَنهَـــجُ الخَلَـــقُ[٦]

وهذا زُهيرُ بنُ أبي سُلمَى يبيِّنُ أنَّ مَنْ خَافَ أسبَابَ الموتِ اغتالَه ولو حَاوَلَ الهربَ مِن قَدَرِهِ إلى أجوَازِ الفَضَاءِ :

وَمَـــن هـــابَ أَسْـــبَابَ المَنَايَـــا يَنَلْنَـــــهُ

وَلَو نَالَ أَسْـــبَابَ السَّـــماءِ بِسُـــلَّمِ[٧]

وهذا السَّمَوأَلُ بنُ عَادِيَاء[٨] يتناولُ هذه القضيَّة ، مبيّنًا أنَّه سيموتُ؛ لأنَّه حيٌّ، ولو حاولَ الفرارَ إلى أيِّ ملجأ فلن يسـلَمَ مـنَ المـوتِ ، إذ لا سلامةَ للإنسَانِ بَلَهَ الرِّجال ، مادامَ كلُّ الأقويـاءِ والضُّعَفـاءِ قـد فَنـوا ، والموتُ لا يُوَفِّرُ أحدًا مِنَ النَّاسِ ، ولا يَخْفَى عليه لمروٍّ ، إنْ أرادَهُ نَالَـهُ ، فلقد حُكِمَ على الإنسانِ بالموتِ منذُ جاءَ إلى الحياةِ ، ولم يكن قبلَ مولِـــده موجوداً ، وما أنْ ابتُلِيَ بالحياةِ حتَّى ابتُلِيَ بالموتِ كذلك.

يقولُ مُستندًا إلى التِّكرارِ اللَّفظيِّ ، والاستفهامِ ، والمقابلةِ المعنويَّةِ بينَ الموتِ والحياةِ :

اسْلَمْ سَلِمْتَ وَلا سَـــلِيمَ عَلَـــى البِلَـــى

فَنِـــيَ الرِّجَـــالُ ذَوُو القُـــوَى فَفَنِيـــتُ

كَيـــفَ السَـــلامَةُ إنْ أَرَدْتُ سَـــــلامَةً

وَالمَـــوتُ يَطلُبُنِـــي وَلَسْـــتُ أَفُـــوتُ

وَأَقِيلُ حَيْثُ أُرَى فَلا أَخْفَى لَهُ
وَيُرَى فَلا يَعْيَا بِحَيْثُ أَبِيتُ
مَيتًا خُلِقْتُ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ قَبْلِهَا
شَيْئًا يَمُوتُ فَمُتُّ حَيْثُ حَيِيتُ
وَأَمُوتُ أُخْرَى بَعْدَهَا وَلأَعْلَمَنْ
إِنْ كَانَ يَنفَعُ أَنَّنِي سَأَمُوتُ(٩)

وهذا طَرَفَةُ بنُ العَبْدِ البَكريُّ يُنكِرُ على الإنسانِ تَرَجِّيه الحياةَ والخلودَ ، ويحثُّه على النَّظَرِ في مصيرِ السَّابقينَ الذين عُمِّروا طويلاً، مثلَ لقمان بن عادٍ الذي زَعَمَتِ العربُ أنَّه ماتَ بعدَ أنْ عُمِّرَ حياة سبعةِ أنْسُرٍ:

فَكَيْفَ يُرَجِّي المَرْءُ دَهْرًا مُخَلَّدًا
وَأَعْمَالُهُ عَمَّا قَلِيلٍ تُحَاسَبُهْ
أَلَم تَرَ لُقْمَانَ بنَ عَادٍ تَتَابَعَتْ
عَلَيهِ النُسُورُ ثُمَّ غَابَتْ كَوَاكِبُ(١٠)

ثمَّ يُجَسِّدُ في معلَّقته حتميَّةَ الموتِ ، مبيِّنًا أنَّه يَعُمُّ كلَّ النَّاسِ ، كريمِهم وبخيلِهم ، حسنِهم وقبيحِهم على السَّوَاء ، فالعيشُ صائرٌ إلى النَّفادِ الحتميِّ ، وأنَّه إذا مُدَّ للمرءِ في أجله حتَّى ظنَّ أنَّ الموتَ أخطأَهُ ، فهو آتيه لا محالةَ ، ولن يستطيعَ الفِرارَ منه ، كما أنَّ الدَّابةَ لا تنعتِقَ من صاحبها وحبلُها بيديه :

أَرَى المَوْتَ يَعْتَـــامُ الكِــرَامَ وَيَصْطَفِــي

عَقِيلَـةَ مَـالِ الفَـــاحِشِ المُتَشَـــدِّدِ

أَرَى العَيْشَ كَـــنْزًا نَاقِصًـا كُـلَّ لَيْلَـةٍ

وَمَـا تَنقُـصِ الأَيَّـامُ وَالدَّهْـرُ يَنفَـــدِ

لَعَمرُكَ إِنَّ المَـــوتَ مَـا أَخْطَـأَ الفَتَـى

لَكَـالطِوَلِ المُرْخَـي وَثِنْيَـاهُ بِـاليَدِ(١١)

ويُواصِلُ طَرَفَةُ تجسيدَه حتْمِيَّةَ الموتِ ومُلازَمَتَه المـــرءَ ، غـيرَ مُراعٍ لمكانتِه وعِزِّه :

أَرَى المَوْتَ لا يُرْعِـي عَلَـى ذِي قَرَابَـةٍ

وَإِنْ كَـانَ فِي الدُّنْيَـا عَزِيـزًا بِمَقْعَـدِ

إِذَا شَـاءَ يَوْمًـا قَـادَهُ بِزِمَامِـهِ

وَمَنْ يَـكُ فِـي حَبْـلِ المَنِيَّـةِ يَنْقَـدِ(١٢)

وهذا عنترةُ العَبْسيُّ يعجَبُ مِنَ المرءِ يُحاولُ الفِرارَ مِن المــوتِ ، أو مِن قَدَرِه الملازِمِ له ، مبيِّنًا أنَّ معرفتَه هذهِ الحقيقةَ كانت سببًا في هوانِ الدُّنيا ونوائبِها عندَه :

إِذَا كَـانَ أَمْــرُ اللهِ أَمْــرًا يُقَــدَّرُ

فَكَيْــفَ يَفِــرُّ المَــرءُ مِنـهُ وَيَحْـــذَرُ

وَمَنْ ذَا يَرُدُّ المَــــوتَ أَو يَدفَــعُ القَضَـــا

وَضَربَتُــهُ مَحتُومَــةٌ لَيــــسَ تَعــــثَرُ

لَقَدْ هَانَ عِنْدِي الدّهــرُ لَــــمَّا عَرَفتُــهُ

وَإِنّي بِمـــا تَــأتي المُلِمّــاتُ أَخــبَرُ(١٣)

وهوَ في موضعٍ آخرَ يخاطبُ صاحبتَه التي بَكرَت تُخَوِّفُهُ ممَّا قــد يلقَاه مِنَ المكَارِهِ ، موضحًا أنَّ المنيَّةَ مَورِدُ كلِّ إنسانٍ ، ولابــدَّ لــه مــنَ الموت ، فليَكُنْ موتُهُ شريفًا في ميدانِ القتالِ ، فقــال داعيًــا صاحبتَــه أنْ تَصُونَ حياءَها أمامَ هذه الحقيقةِ الحتميَّة :

بَكَــرَتْ تُخَوِّفُنــي الحُتُــوفَ كَـــأَنَّني

أَصبَحْتُ عَنْ غَرَضِ الحُتــوفِ بِمَعــزِلِ

فَأَجَبتُهـــا إِنَّ المَنِيَّـــــةَ مَنهَـــــلٌ

لا بُــدَّ أَن أُسْــقَى بِكَــأسِ المَنهَــــلِ

فَاقِنِي حَيَــاءَكِ لا أَبــا لَــكِ وَاعلَمــي

أَنّي امرُؤٌ سَــأَموتُ إِن لَــم أُقتَــلِ(١٤)

ويَتَنَاوَلُ حَاتِمٌ الطَّائيُّ هذا المعنى ، مبيِّنًا أنَّ كلَّ يومٍ يَمُرُّ من عُمرِ المرءِ يُقرِّبُهُ من أجَلِه :

يَسعى الفَتَــى وَحِمَــامُ المَــوتِ يُدرِكُــهُ

إنّــي لأعلَــمُ أنّــي سَــوفَ يُدرِكُــني
يَومي وأُصبِحُ عَــن دُنيــايَ مُشــتَغِلا[١٥]

وهذا عَبِيدُ بنُ الأبْرَص[١٦] يُوصِي بَنِيه وإخْوَتِه بعدمِ التَّغافُلِ عَنِ المنَايا ؛ إذْ أنَّها تقفُ بالمرصَادِ لكلِّ البشَرِ ، لا تخطئُ أحدًا ، ولا يستطيعُ إنسانٌ أنْ يفلِتَ منها مهما كانَ شأنُه ، ومادامتِ الحياةُ ســتنتهي هكــذا ، وستُفارِقُ روحُه جسَدَهُ بلا عودَةٍ ، فالعيشُ فيها لا يَسُرُّ ، والحِرصُ عليها لا يُفيدُ :

أُوَصِّي بَنِــيَّ وأَعمَــامَهُم ... بِــأَنَّ المَنَايَــا لَهُــم راصِــدَه
لَها مُدَّةٌ فَنُفُــوسُ العِبَــادِ ... إِلَيهَــا وَإِن جَهَــدُوا قَــاصِدَه
فَوَاللهِ إِنْ عِشتُ ما سَــرَّني ... وَإِن مِتُّ مَا كَانَتِ العَــائِدَه[١٧]

هذه كانت طائفَةٌ منَ التَّأمُّلاتِ الشِّعريةِ التي جَسَّدت حتميَّةَ الموت، وما ينبغي أن يَسْلُكَهُ المرءُ إزاءَ هذه الحقيقةِ الحتميَّة. فمادامَ العمرُ محدودًا فيجبُ عدمُ الحرصِ على الحياةِ أو التَّمسُّكِ بها ، وإنَّما الواجــبُ التَّمسُّــكُ بمكارمِ الأخلاقِ والنُّفورُ مما يسئُ إلى سمعةِ الإنســانِ ، ولهــذا مضــى الشعراءُ يُزيِّنونَ البلاءَ في المعاركِ والإقدامَ بلا رهبةٍ أو وجلٍ .

بين الشَّجاعةِ والشَّرفِ والمجد :

الشجاعةُ والشــرفُ والمــجدُ منَ القِيَمِ التي طالمــا تغنَّــى بهــا الشُّعراءُ ، وحثُّوا عليها ، واحتفَوا بها ، فالشَّجاعةُ والإقدَامُ فــي ميــادين القتالِ هيَ السَّبيلُ الأسمى للمجدِ والشَّرفِ والعزَّةِ. وقد هيمنتْ هذه القيمُ مِن

شجاعةٍ وشرفٍ ومجدٍ على الشَّاعر الجاهلي فكان ((لسانُ حالِ قبيلته ، أو مرآةُ أخلاقِها وآدابِها. ولذلكَ كان أكثرُ شعراءِ الجاهليَّةِ من أهلِ الحـــربِ الفرسان الشُّجعان))[١٨] .

ومن أبرزِ هؤلاءِ الشُّعراءِ الذين تحدَّثوا عن هذه القيمة : عَنْـــتَرَةُ العَبْسِيُّ ، فقد أخذَ يُجَسِّدُ قيمةَ المجدِ والشُّمُوخِ ، مبيِّنًا أنَّ هذه القيمةَ السَّامِيَةَ لا يظْفَرُ بها إلَّا مَن تَحلَّى بالشَّجاعةِ والبطولةِ في ميدانِ الوغَى ، أمَّا مَـــن كانَ دونَ ذلك فتراه يعيشُ ذليلاً، ويموتُ حقيراً ، لا يُذكرُ في حياتِهِ ، ولا يُبكَى عليهِ بعدَ مماتِه:

لَعَمـــرُكَ إنَّ المَجْـــدَ وَالفَخـــرَ وَالعُـــــلا

وَنَيـــلَ الأَمَـــاني وَارتِفَـــاعَ المَراتِـــــــبِ

لِمَـــن يَلتَقـــي أَبطَالَهـــــا وَسَـــــرَاتَها

بِقَلبٍ صَبورٍ عِنـــدَ وَقـــعِ المَضـــارِبِ[١٩]

وَيَبني بِحَـــدِّ السَـــيفِ مَجـــدًا مُشَـــيَّدًا

عَلى فَلَـــكِ العَليـــاءِ فَـــوقَ الكَواكِـــبِ

وَمَن لَـــم يُـــرَوِّ رُمحَـــهُ مِـــن دَمِ العِـــدا

إِذا اشتَبَكَت سُمرُ القَنـــا بِـــالقَواضِبِ[٢٠]

وَيُعطي القَنا الخَطِّـــيّ في الحَـــرب حَقَّـــهُ

وَيَبري بحَدّ السَيفِ عُـــرضَ المَنـــاكِبِ(٢١)

يَعيـــشُ كَمـــا عـــاشَ الذَليـــلُ بِغُصَّـــةٍ

وَإِن ماتَ لا يُجري دُموعَ النَـــــوادِبِ(٢٢)

ويُواصِلُ عنترةُ تأكيدَ المعنى نفسه ، داعيًا الإنسانَ إلى ضَـــرورة التَّحلي بالشَّجاعةِ ، والاعتزازِ بالنفسِ ، وإلا ماتَ ذليلاً :

مَن لَـــم يَعِـــش مُتَعَـــزِّزًا بِسِـــنانِه ... سَيَموتُ مَوتَ الذُلِّ بَـــينَ المَعشَـــرِ

لا بُدَّ لِلعُمرِ النَفيـــسِ مِـــنَ الفَنـــا ... فَاصرِف زَمانَكَ في الأَعَزِّ الأَفخَرِ(٢٣)

ثمَّ تجِدُهُ يدعو إلى الدِّفاعِ عَنِ النَّفسِ ، ومواجهةِ بطشِ الأعـــداءِ ، وعَدَمِ الخوفِ مِنَ المنيَّةِ ، وينْهَى عنِ الحياةِ المترفَةِ النَّاعمَةِ :

إِذا كَشَفَ الزَمانُ لَكَ القِناعا ... وَمَدَّ إِلَيكَ صَرفُ الدَهرِ باعا

فَلا تَخشَ المَنِيَّـــةَ وَالقَيَنهـــا ... وَدافِع ما استَطَعتَ لَها دِفاعا

وَلا تَختَر فِراشًا مِـــن حَريـــرٍ ... وَلا تَبكِ المَنازِلَ وَالبِقاعا(٢٤)

وما فَتِئَ عنترةُ يحثُّ الإنسانَ على الاحتكامِ إلى القُوَّةِ والسَّيفِ في مواجهةِ الأعداءِ ، وينهاه عن أسبابِ الخضوعِ والذُّلِ ومظاهرِهما ، مبيِّنًـــا أنَّ الموتَ مصيرُ كُلِّ كائنٍ ، وهوَ القَدَرُ المحتومُ الذي لا يمكنُ أنْ يهـــرُبَ منه إنسانٌ مهما أُوتي مِن بأسٍ وسلطانٍ وقوَّةٍ ، ولذا يجبُ عليه أن يَتَحلّى

بالشَّجاعةِ والإقدامِ دونَ تَرَدُّدٍ ، وهذه سبيلُه الأعلى للعزَّةِ والمجدِ والكرامةِ:

حَكِّم سُيوفَكَ في رِقابِ العُذَّلِ ... وَإذا نَزَلتَ بِدارِ ذُلٍّ فَارحَلِ

وَإذا الجَبانُ نَهاكَ يَومَ كَريهَةٍ ... خَوفًا عَلَيكَ مِنَ ازدِحامِ الجَحفَلِ

فَاعصِ مَقالَتَهُ وَلا تَحفِل بِها ... وَاقدِم إذا حَقَّ اللِّقا في الأَوَّلِ

وَاختَر لِنَفسِكَ مَنزِلاً تَعلو بِهِ ... أَو مُت كَريمًا تَحتَ ظِلِّ القَسطَلِ

فَالمَوتُ لا يُنجيكَ مِن آفاتِهِ ... حِصنٌ وَلَو شَيَّدتَهُ بِالجَندَلِ

مَوتُ الفَتى في عِزَّةٍ خَيرٌ لَهُ ... مِن أَن يَبيتَ أَسيرَ طَرفٍ أَكحَلِ(٢٥)

ومِن مُنطَلَقِ الشَّجاعةِ ، يرى السَّمَوألُ بنُ عَادِيَاء أهميَّةَ الشَّرَفِ ، مبيِّنًا أنَّ المرءَ إذا حفظَ شرفَهُ نقيًّا وعرضَه صافيًا فستبقَى خصالُه الأخرى جميلةً مستحسَنَةً ، وإذا لم يصبرِ الإنسانُ على المكارِهِ ، عابَهُ النَّاسُ واحتقروه.

يقولُ في مطلَعِ لاميَّته العاليَةِ معتمدًا على أسلوبِ الشَّرطِ :

إذا المَرءُ لَم يُدنَس مِنَ اللُؤمِ عِرضُهُ ... فَكُلُّ رِداءٍ يَرتَديهِ جَميلُ

وَإن هُوَ لَم يَحمِلٍ عَلى النَفسِ ضَيمَها ... فَلَيسَ إِلى حُسنِ الثَناءِ سَبيلُ(٢٦)

وهذا النَّابغةُ الذُّبيانيُّ يؤكِّدُ معنى القوَّة ، مبيِّنًا أنَّ الضَّعيفَ يُستَهدَفُ للغزوِ والنَّهبِ ، أمَّا القَويُّ المستَأسِدُ فتخافُهُ الأعداءُ وتتحاشاه:

تَعدو الذِّئابُ عَلى مَن لا كِلابَ لَهُ ... وَتَتَّقي مَربَضَ المُستَنفِرِ الحامي(٢٧)

ويُوصي عبدُ قيسِ بنُ خُفَافٍ[٢٨] ابنَه جُبيل: بأن يَرُدَّ العدوانَ بمثله ، ولا يسكُتَ عنه ، وأن يشدَّ على الأعداءِ ويُرْهِبَهم دونَ تردُّدٍ، ؛ حتى يتَّقوه ويتَحاموه ، كما يتحامون الأجربَ وطلاءه :

وَإذا أَتَتكَ مِـــنَ العَــدُوِّ قَــوارِضٌ فاقرُص كَذاكَ وَلا تَقُــل لَــم أفعَــلِ
وَإذا لَقيتَ القَومَ فَـــاضرِب فيهِـــمُ حَتّى يَرَوكَ طِلاءَ أَجرَبَ مُهمَلِ(٢٩)

ويوصي ذو الإصبَعِ العَدْوَاني[٣٠] ابنَه أُسَـــيدًا بـــالتَّحلي بالشَّـــجاعةِ والإقدامِ في ميادينِ الوَغَى :

وَإذا القُـــرومُ تَخـــاطَرَت يَومًـــا وَأَرعَـــدَت الخَصيـــلا
فَاهصِر كَهَصـــرِ اللَيـــثِ خَضَّبَ مِن فَريسَـــتِهِ التَّليـــلا
وَانـــزِل إلى الهَيجـــا إذا أبطالُها كَرِهُـــوا الـــنُّزولا(٣١)

هكذا كانَ الشُّعراءُ يُوجِّهونَ وينبِّهونَ إلى أهميَّةِ الشَّجاعةِ والقُـــوَّةِ في مواجهةِ الظُّلمِ والعدوانِ. ولم تكن هذه التَّوجيهـــاتُ نحـــو الشَّـــجاعةِ والإقدامِ مجرَّدَ ضربٍ مِن ضروبِ الخيالِ ، إنَّما جاءتْ مستلهمةً معـــبرةً عن التَّراكمِ المعرفيِّ وخوضِ التَّجربةِ ، وهنا تكمنُ واقعيَّةُ الشِّعرِ الجاهلي، فالشَّاعرُ الجاهلي لا ((يدَّعي الدَّعاوَى الكاذبةَ عن بلائه في الحربِ ، فهـــو لا يخوضُها وحده ، ولكن إلى جانبِ شهودٍ من أقرانه الفرسانِ يـــأنفُ أن يبدو أمامَهم كاذبًا. وهذا من الأسبابِ الهامَّةِ التي جعلـــت شـــعرَه يتَّسـمُ بالصِّدقِ.))(٣٢) .

البذل والعطاء:

اتَّسمَ الجاهليونَ بفضيلةِ الكرمِ ، وجعلوا لها مكانةً سامقةً باعتبارها قيمةً اجتماعيَّةً عاليةً ، وجعلوها من أهمِّ ركائزِ القيادةِ والسِّيادَةِ ، فلا يسودُ بخيلٌ لديهم ، ولا يرتفعُ شأنُ قائدٍ ما لم يكن جواداً سخيًّا.

وقد تغنَّى شعراؤهم بالكرمِ والكرماءِ ، فكانَ الجوادُ مُمَدَّحًا ، والبخيلُ مثارَ السُّخريةِ والازدراءِ والهجاءِ ، ومن أبرزِ هؤلاءِ الشُّعراء الذين جسَّدوا هذهِ القيمةَ وأوصَوا بها : حاتم الطَّائي ، فنراه يقدِّم أنموذجًا رفيعًا في كيفية معايشةِ الآخرين ، حيثُ التآخي والتعاطُفُ ، ومن هنا راح يخاطبُ مَن يلومُه على بذلِه وإنفاقِه وكثرةِ إتلافِه المالَ ، مبيِّنًا أنَّه لا يرى في ذلك مغرمًا أو خسارة ، ولا يشعرُ بالندم ، ويكفي المرءُ في ذلك أن ينظرَ إلى نوائبِ الدَّهرِ وحتميَّةِ الموتِ.

وجَعَلَ يوصي الإنسانَ بأنْ يكرِّمَ نفسَه بمالِه ؛ لأنَّه إذا هانتْ عليه لن تجدَ لها مُكرِمًا ، وإذا ماتَ وحُشِرَ في قبرِه المظلمِ ، خَلَّفَ مالَه الذي شَقِيَ في جمعِه ، وأسعَدَ به غيرُه ، الذي قلَّما سيحمدُه عليه. كلُّ ذلكَ كانَ الدَّافعَ الأقوى ليعيشَ بمالِه من أجلِ إسعادِ نفسِه والآخرينَ ؛ فيأمَنَ الحقدَ والضَّغينةَ.

يقولُ مازجًا بين التَّقريرِ والتَّصويرِ ، متَّكئًا على الأسلوبِ الإنشائيِّ، معَ شيءٍ من الأصباغِ البديعيةِ غيرِ المتكلَّفةِ:

وَعاذِلَتينِ هَبَّتا بَعدَ هَجعَةٍ ... تَلومانِ متلافًا مُفيدًا مُلَوَّما

تَلومانِ لمَّا غَوَّرَ النَّجمُ ضِلَّةً ... فَتًى لا يَرى الإتلافَ في الحَمدِ مَغرَما

فَقُلتُ وَقَد طالَ العِتــابُ عَلَيهِمـا ... وَلَــو عَذَرانــي أَن تَبينَــا وَتُصرَمــا

أَلا لا تَلوماني عَلــى مــا تَقَدَّمــا ... كَفى بِصُروفِ الدَّهرِ لِلمَــرءِ مُحكِمــا

فَإِنَّكُمــا لا مــا مَضــى تُدرِكانِــهِ ... وَلَســتُ عَلــى مــا فــاتَني مُتَنَدِّمــا

فَنَفسَكَ أَكرِمهــا فَــإِنَّكَ إِن تَهُــن ... عَلَيكَ فَلَن تُلفــي لَــكَ الدَّهــرَ مُكرِمــا

أَهِن لِلَّذي تَهــوى التِّــلادَ فَإِنَّــهُ ... إِذا مُــتَّ كــانَ المــالُ نَهبًــا مُقَسَّــما

وَلا تَشــقَيَن فيــهِ فَيَســعَدَ وارِثٌ ... بِهِ حينَ تُخشَى أَغــبَرَ اللَــونِ مُظلِمــا

يُقَسِّمُهُ غُنمًــا وَيَشــري كَرامَــةً ... وَقَد صِرتَ في خَطٍّ مِنَ الأَرضِ أَعظُما

قَليــلٌ بِــهِ مــا يَحمَدَنَّــكَ وارِثٌ ... إِذا ساقَ مِمَّــا كُنــتَ تَجمَــعُ مَغنَمــا

تَحَمَّل عَنِ الأَدنَينَ وَاستَبقِ وُدَّهُــم ... وَلَن تَســتَطيعَ الحِلــمَ حَتّــى تَحَلَّمــا

مَتى تَرقِ أَضغانَ العَشيرَةِ بِالأَنــا ... وَكَفِّ الأَذى يُحسَم لَكَ الداءُ مَحسَما[٣٣]

ثُمَّ تجدُ حاتمًا يُجَسِّدُ فضيلةَ الإنفاقِ والجودِ من خـــلالِ تصويـــره رذيلة البخلِ والشُحِ ، موضحًا أنَّ البخيلَ لا يرى في ماله إلَّا سبيلاً واحدةً، بينما يرى الكريمُ في ماله سُبُلاً كثيرةً ، فالبخيلُ إذا ماتَ لا يتبعـــه ســوَى الذَّمِّ والقدحِ والسُخريَّةُ والازدراءُ ، بينما يهنأُ وارثُه بما جمعه ببُخلِه وخلَّفه لُقمةً سائغةً لوارثِه.

ثُمَّ يفخرُ بكرمِهِ منبِّهًا إلى أنَّ المالَ قد يكونُ سببًا في فضائلَ جليلةٍ من أهمِّها صلةُ الأرحامِ. يقولُ مخاطبًا عاذلتَه :

مَهلاً نوارُ أقلّي اللّــومَ والعَــذَلا   وَلا تَقولي لِشَــيءٍ فــاتَ مــا فَعَــلا
وَلا تَقولي لِمالٍ كُنــتُ مُهلِكَــهُ   مَهلاً وَإِن كُنتُ أُعطي الجِنَّ وَالخَبــلا
يَرى البَخيلُ سَبيلَ المالِ واحِــدَةً   إِنَّ الجَوادَ يَــرى فــي مالِــهِ سُــبُلا
إِنَّ البَخيلَ إِذا ما مــاتَ يَتبَعُــهُ   سوءُ الثَّناءِ وَيَحوي الــوارِثُ الإِبِــلا
لَيتَ البَخيلَ يَراهُ النّــاسُ كُلُّهُــمُ   كَما يَراهُــم فَــلا يُقــرى إِذا نَــزَلا
لا تَعذِليني عَلى مالٍ وَصَلتُ بِــهِ   رَحمًا وَخَيرُ سَبيلِ المالِ ما وَصَلا(٣٤)

وهذا عنترةُ – أيضًا – يدعو إلى الكرمِ والسَّخاءِ ، مبيِّنًا أنَّ البخلَ من صفاتِ اللِّئامِ ، فيقولُ مقابلاً بينَ المعنيينِ ، ومفتخرًا بنفسِه:

تَجافَيتُ عَن طَبعِ اللِّئــامِ لِــأَنَّني   أَرى البُخلَ يُشنَا وَالمَكــارِمَ تُطلَــبُ
وَأَعلَمُ أَنَّ الجودَ في النّاسِ شيمَةٌ   تَقومُ بِها الأَحرارُ وَالطَّبعُ يَغلِــبُ(٣٥)

ويَرى المثقَّبُ العَبْديُّ(٣٦) أنَّ طيِّبَ النَّفسِ لا يُبالي إنْ تلفَ مالُه في سبيلِ الدِّفاعِ عن عِرضِهِ ومجدِهِ :

لا يُبالي طَيِّبُ النَّفسِ بِــهِ   تَلَفَ المــالِ إِذا العِــرضُ سَــلِم
أَجعَلُ المالَ لِعِرضي جُنَّــةً   إِنَّ خَيرَ المالِ ما أَدّى الذَّمَــم(٣٧)

ويخاطبُ عمرو بنُ الأهتَم(٣٨) زوجتَه التي لامتْــه علــى كرمِــه وسخائه ، فيطلبُ منها أن تتركَه على سجيَّته وكرمِه ، فإنَّ البخــلَ يُزيِّــنُ للإنسانِ العذرَ الكاذبَ والعللَ الباطلةَ ويذهبُ بأخلاقِه الحميدة. أمَّا الكريــمُ

الذي يبذلُ مالَه دونَ عرضِه ، ويخافُ على شرفِه عارَ البخلِ فإنَّه يسلكُ كلَّ طريقٍ يستوجِبُ المدحَ والشُّكرَ فيقولُ :

ذَريني فَإنَّ البُخلَ يا أمَّ هَيثَمٍ ... لِصالِحِ أخلاقِ الرجالِ سَروقُ

ذَريني وَحُطِّي في هَواي فَإنَّني ... عَلى الحَسَبِ الزاكي الرَفيعِ شَفيقُ

وَإنّي كَريمٌ ذُو عيالٍ تَهُمُّني ... نَوائبُ يَغشى رُزؤُها وَحقوقُ[٣٩]

ويُزيِّنُ قصيدتَه ببعضِ الأمثالِ والحكمِ السَّيَّارةِ فيقولُ :

وَكُلُّ كَريمٍ يَتَّقي الذَمَّ بِالقِرى ... وَلِلخَيرِ بَينَ الصالِحينَ طَريقُ

لَعَمرُكَ ما ضاقَت بِلادٌ بِأَهلِها ... وَلَكِنَّ أَخلاقَ الرِجالِ تَضيقُ

فالكرمُ والبذلُ والعطاءُ كانت الترنيمةَ العذبةَ التي تغنَّى بها الشُّعراءُ العربُ في جاهليتهم ، ونسجوا وشاحاً عزيزاً زيَّنوا به أصحابَ الجودِ والعطاءِ ، ولهذا حرص الآباءُ على إصاءِ الأبناءِ بالكرم والبعدِ عن الشُّحِّ والبخلِ. تقولُ حبيبةُ بنتُ عبدالعُزَّى العوراءُ[٤٠] :

وصّى بِها جَدّي وَعَلَّمَني أَبي ... نَفضَ الوِعاءِ وَكُلُّ زادٍ يَنفَدُ

فَاحفَظ حَميتَكَ لا أَبالَكَ وَاحتَرِس ... لا تَحرِقَنهُ فأرَةٌ أو جُدجُدُ[٤١]

وكانَ أبو قيسِ بنُ الأسلت[٤٢] رجلاً كريماً مفضَّالاً يرعى الفقراءِ ، ويحنو على المساكينِ ؛ فلذا أوصى ولدَه قيساً به ، فقالَ :

أقيسُ إنْ هَلَكتُ وأنتَ حيٌّ ... فلا يَعْدَم فَواضِلَكَ المُفتَقِرُ[٤٣]

وليسَ في الحثِّ على الكرمِ والبذلِ دعوةٌ للإسرافِ والتبذيرِ وإفسادِ الثروةِ ، فقد ارتفعت أصواتٌ كثيرةٌ تدعو إلى تثميرِ المالِ ، وتوصي بحفظِه وتكثيرِه حتَّى ينهضَ صاحبُه بما يجبُ عليه من حقوقِ الكرمِ والبذلِ، ولذلكَ يقولُ أبو قيس بنِ الأسلتِ موصيًا ابنه بعدم التبذيرِ والإسرافِ :

ومَالَكَ فاصْطَنِعهُ وأصْلِحَنْـهُ ... تَجِدْ فيهِ الفَوَاضِلَ والنَّعيمَا(٤٤)

ويقولُ المتَلَمِّسُ الضُّبَعِيُّ(٤٥) :

لَحِفظُ المالِ أيسَرُ مِن بُغَاهُ ... وسَيرٍ في البِلادِ بِغَيرِ زادِ

وإصلاحُ القَليلِ يَزيدُ فيهِ ... ولا يَبقَى الكَثيرُ مَعَ الفَسادِ(٤٦)

فحفظُ المالِ وتدبيرُهُ أيسرُ من طلبِه والضَّربِ في الأرضِ لتحصيلِه، وإصلاحُ القليلِ منه يزيدُهُ ، والكثيرُ منه يفنى مع التبذيرِ والإسرافِ.

هذه كانت بعضًا من الوصَايا والتوجيهات الشِّعريَّة التي دارت حولَ معنى البذْلِ والعطاءِ ، ومُواجهةِ البُخلِ والشُّحِّ.

التَّرَوِّي والحذرُ والفطْنَةُ :

اتَّسَمَ العربُ في الجاهليَّة بالفطْنَة والكيَاسَةِ إزَاءَ أمورِ الحياةِ المختلفة ، وقد أعلنَ كثيرٌ منَ الشُّعراءِ احتفاءَهم بذلكَ مُصرِّحينَ بفطنتهم وسَعَةِ تجربتِهم ، منهم أبو زياد ، عَبيدُ بنُ الأبْرَصِ ، فهو ينصَحُ بتوخِّي الحذرِ إزَاءَ الخائنِ ؛ لأنَّ الثِّقَةَ بهِ منتَفيةٌ وعواقِبُها وخيمةٌ ، ويدعو إلى

عدمِ إخلاصِ الودِّ لأحد قبلَ إخضاعِهِ للتَّجربَةِ ؛ حتى يتبينَ ما تنطوي عليه نفسُه ، كما ينصحُ بألاَّ يثِقَ المرءُ في رأي مَنْ لم يختبِرْه ، بينما يحثُّ على الاقتداءِ بمن عُرِفَ بسدادِ الرَّأي.

يقولُ معتمداً على الأسلوب الإنشائي :

وَإنّي لَــذو رأيٍ يُعــاشُ بِفَضلِــهِ — وَما أنا مِن عِلــمِ الأُمــورِ بِمُبتَــدي

إذا أنتَ حَمَّلــتَ الخَــؤونَ أمانَــةً — فَــإنَّكَ قَــد أسـنَدتَها شَــرَّ مُســنَدِ

وَلا تُظهِرَن حُبَّ امرِئٍ قَبلَ خُــبرِهِ — وَبَعدَ بَلاءِ المَرءِ فَــاذمُم أوِ احمَــدِ

وَلا تَتبَعَنَّ رأيَ مَــن لَــم تَقُصُّــهُ — وَلَكِن بِرأيِ المَرءِ ذي اللُّبِّ فَاقتَدِ[٤٧]

ويرى امرؤُ القيسِ أنَّ الإنسانَ ما دامَ حيًّا فإنَّه لا يُــدرِكُ أوَاخِــرَ الأمورِ ، ولا ينالُ غايةَ الآمالِ ، ولا يتَأتَّى له كلُّ ما يريدُ ، وهو مع ذلك لا يألو جهداً في السَّعي والطَّلَبِ :

وَمَا المَرءُ ما دامَت حُشاشَةُ نَفسِهِ — بِمُدرِكِ أطرافِ الخُطوبِ وَلا آلــي[٤٨]

كما أوضحَ أنَّ المرءَ إذا لم يحفظ سرَّه، فهو أحرى ألاَّ يحفظَ ســرَّ غيرِه:

إذا المَرءُ لَم يَخزُن عَلَيهِ لِســانَهُ — فَلَيسَ عَلى شَيءٍ سِواهُ بِخَزّانِ[٤٩]

وهذا النَّابغةُ الذُّبيانيُّ يدعو إلى ضرورةِ التَّريُّثِ والتَّروِّي في اتخاذِ القَرارِ ، وأنْ لا يندمَ المرءُ على شيء يفوتُه، فقد يكونُ ذلك خيراً له وكم مِن طعامٍ يجلِبُ لصاحبِهِ الألمَ والمرضَ. يقولُ مُقَــرِّراً ومعتمِــداً علــى

العباراتِ المقسَّمَةِ:

فَالرِّفْقُ يُمنٌ وَالأَناةُ سَعادَةٌ فَتَأَنَّ في رِفقٍ تَنالُ نَجاحا
وَاليأسُ مِمّا فاتَ يُعقِبُ راحَةً وَلَرُبَّ مَطعَمَةٍ تَعودُ ذُباحا(٥٠)

ويوصي أبو بصيرٍ الأعشى الإنسانَ بأنْ لا يلتَمِسَ الودَّ ممن يَتَباعَدُ وإنْ قَرَبَتْ قرابَتُه ، وأنْ لا ينأى عن المتَوَدِّدِ وإنْ سبَقَت عداوتُه ؛ فليسَ القريبُ مَن تربطُه به صلةُ النَّسَبِ ، ولكنَّ القريبَ الحقَّ مَن قَرَّبَ نفسَه بالودِّ وأخلَصَه. يقولُ مشيراً إلى خبرته وتجربته:

سَأُوصي بَصيرًا إن دَنَوتُ منَ البِلى وَصاةَ امرِئٍ قاسى الأُمورَ وَجَرَّبا
بِأَن لا تَبَغَّ الوُدَّ مِن مُتَباعِدٍ وَلا تَنأَ عَن ذي بِغضَةٍ إِن تَقَرَّبا
فَإِنَّ القَريبَ مَن يُقَرِّبُ نَفسَهُ لَعَمرُ أَبيكَ الخَيرَ لا مَن تَنَسَّبا(٥١)

كما نراه يحثُّ على التَّحلي بأسبابِ الخيرِ والصَّوابِ ، وتَجنُّبِ الجهلِ والضَّلالِ ، وينصحُ بعدمِ التشبُّثِ بالأمرِ يُعْجِزُ صاحبَه ، فمِنَ الفطنةِ أنْ يتركَه إلى غيره ، ويبينُ أنَّ الاعتدالَ والقصدَ في معالجةِ الأمورِ ، يصلُ بالمرءِ إلى ما يصبو إليه.

فيقولُ في قصيدةٍ أخرى معتمداً على المقابلةِ بينَ المعاني ، وعلى صيغةِ التفضيلِ:

جِماعُ الهَوى في الرُّشدِ أَدنى إِلى التُّقى وَتَركُ الهَوى في الغَيِّ أَنجى وَأَوفَقُ
إِذا حاجَةٌ وَلَّتكَ لا تَستَطيعُها فَخُذ طَرَفًا مِن غَيرِها حينَ تَسبِقُ

فَذَلِـكَ أَدنــى أَن تَنـــالَ جَســيمَها　　وَلَلقَصدُ أَبقى في المَسيرِ وَأَلحَــقُ[٥٢]

ويبينُ طَرَفَةُ بنُ العبدِ أنَّ الأيامَ ستُطْلِعُ المرءَ علــى مــا يفعلُــه ، وستأتيه بالأخبارِ التي يجهلُها ، دونَ أن يقصدَ إلى ذلك ، فيقولُ في خاتمةِ معلقته ، مستخدماً التكرارَ اللفظيَّ والمعنويَّ :

سَتُبدي لَكَ الأَيّامُ ما كُنــتَ جــاهِلاً　　وَيَــأتيكَ بِالأَخبــارِ مَــن لَــم تُــزَوِّدِ

وَيَأتيكَ بِالأَخبارِ مَن لَــم تَبِــع لَــهُ　　بَتاتًا وَلَم تَضرِب لَهُ وَقــتَ مَوعِــدِ[٥٣]

ويحثُّ عنترةُ العبسيُّ على الهمَّة واليقظة وسَعَةِ الأفقِ ، مبيِّنــا أنَّ الموتَ خيرٌ للمرءِ لا يستطيعُ القيامَ بأمرِه إلاَّ بغيرِه :

وَلَلمَوتُ خَــيرٌ لِلفَتــى مِــن حَياتِــهِ　　إِذا لَــم يَثِــب لِلأَمــرِ إِلّــا بِقــائِدِ

فَعالِج جَســيماتِ الأُمــورِ وَلا تَكُــن　　هَبيتَ الفُــؤادِ هِمَّــةً لِلسَّــوائِدِ[٥٤]

كما نراه يدعو المرءَ إلى أنْ يتلاءَمَ مع طبيعةِ المحيطينَ به مِــن ذوي الظُّلم أو الجهالةِ، حتى يتمكَّنَ من مواجهتِم:

وَإِذا بُليتَ بِظالِمٍ كُــن ظالِمــاً　　وَإِذا لَقيتَ ذَوي الجَهالَةِ فَاجهَلِ[٥٥]

ولكنَّ المثقِّبَ العبديَّ له توجيهٌ آخر حولَ هذا المعنى ، فهو يحذِّرُ منَ الإنسانِ الذي يبتسمُ لكَ في وجهِك ، ثم يسبُّك في غيبتك بقبيحِ القولِ ، مبيِّنًا ضرورةَ مقابلةِ هذا الآخر بالحكمةِ والتَّصبر ؛ خشيةَ أنْ يَظنَّ إنســانٌ جاهلٌ صدقَ ما زعمَه ، فالإعراضُ عن ذي الافتراءِ والفُحشِ قــد يكــونُ أفضلَ مِن المواجهةِ :

إنَّ شَرَّ الناسِ مَـــن يَكشِــرُ لـــي حينَ يَلقـــاني وَإن غِبــتُ شَـتَم

وكَــلامٍ سَـــيِّئٍ قَـــد وَقَـــرَت عَنهُ أُذُناي وَما بي مِـــن صَمَـم

فَتَعَزَّيـــتُ خَشــــاةَ أن يَـــرى جاهِلٌ أنّــي كَمـا كـانَ زَعَـم

وَلَبَعضُ الصَّفحِ وَالإعراضِ عَـــن ذي الخَنا أبقى وَإن كانَ ظَلَم(٥٦)

وهذا تأبَّطَ شراً(٥٧) يبيِّن أنَّ المرءَ إذا لم يحســـنِ التَّصـــرفَ فـــي ساعاتِ الشِّدَّةِ ، فإنَّ أمرَه سيؤولُ إلى الضَّياعِ والخسرانِ ، أمَّــا الرَّجــلُ الحازمُ الحذرُ ، فيأخذ حيطتَه وحذرَه قبلَ أن تصيبَه الأخطارُ ، ويعــــرف كيف يخرجُ مِنَ المأزقِ سالمًا دونَ أن يلحقَه ضررٌ :

إذا المَرءُ لَم يَحتَل وَقَد جَـــدَّ جَـدُّهُ أَضاعَ وَقاسى أَمـــرَهُ وَهـــوَ مُدبِـرُ

وَلَكِن أَخو الحَزمِ الَّذي لَيسَ نـــازِلاً بِهِ الخَطبُ إِلّا وَهوَ لِلقَصـــدِ مُبصِـرُ

فَذاكَ قَريعُ الدَّهـــرِ ماكَـانَ حُـوَّلٌ إِذا سُدَّ مِنهُ مَنخَرٌ جــاشَ مَنخَـرُ(٥٨)

ويتَّصلُ بهذا اللونِ من الوصايا موضوعٌ مهمٌّ آخـــر ، ألا وهـــو الوَصايا الحربيَّة ، وتزدادُ أهميَّته حينَ يتجهَّزُ العدوُّ لقتالِ قـــومِ الشَّـــاعرِ فتأخذُه الشَّفقةُ على قومِه فينصحهم بالاتحادِ ورأبِ الصَّدْعِ ونبذِ الخـــلافِ والتفرُّقِ.

مِن ذلكَ ما وصَّى به قيسُ بنُ مسعودٍ(٥٩) قومَه بكرَ بن وائل حينَ علِمَ بعزمِ كسرى على غزوهم ؛ تأديباً لهم لإغارتِهم علـــى مملكتِــه فـــي نواحي سوادِ العراقِ ، فقال وهو في حبسِ كسرى ينذر قومَه :

ألا ليتني أرشو سـلاحي وبغلتـي ... لأن تَطّـم الأنبـاءَ والعلـم وائــل

فأوصيكُمُ باللـه والصُّلـحِ بينكُـمْ ... لِيَنْطِـقَ مَعْـرُوفٌ ويُزْجَـرَ جـاهلُ

وَصَاةَ امرئٍ لَو كانَ فيكم أعـاتَكُمْ ... على الدَّهرِ والأيامُ فيهـا الغوائـلُ(٦٠)

ومن أشهرِ الوصايا الحربيَّةِ وصيَّةُ لقيطِ بن يعمر(٦١) الذي أنـذرَ قومَه إياد ، وبيَّنَ لهم ما يحيطُ بهم من الأخطارِ والمصائبِ ، ثم دعاهم إلى الاستعدادِ والتهيؤ للحربِ ، وبثِّ العيونِ والأرصادِ ؛ حتَّى لا يؤخذوا على حينِ غرَّةٍ ، ثمَّ تجاوزَ ذلك كلَّه إلى إيصائهم بالتَّدقيقِ في اختيارِ قـائدهم وزعيمهم مبيناً لهم أنَّ هذا القائدَ يجبُ أن يكـونَ خبـيراً بفنـونِ القتـالِ وأساليبِ الحربِ ، قد حنَّكتْه التَّجاربُ ، غيرُ مستبدٍّ برأيه أو مغتراً بنفسه ، مع قوةِ عزيمةٍ وشرفِ نفسٍ ، لا تبطرُه الغنيمةُ ولا يستذلُّه الفقرُ ، حريصًا على مصالحِ قومِه ، لا يشغلُه عن ذلك تثميرُ مالٍ ولا شدَّةُ عنايـةٍ بولـدٍ. فيقول :

وَقَلِّـدُوا أمرَكُـمُ ، للَّـهِ دَرُّكُـمُ ، ... رَحْبَ الذِّراعِ، بأمْرِ الحـربِ مُضْطَلِعـا

لا مُتْرَفـاً إنْ رَخـاءُ العَيْـشِ سـاعَدَهُ ... ولا إذا عَـضَّ مَكْـرُوهٌ بـه خَشَـعا

لا يَطْعَـمُ النَّـومَ إلاَّ رَيْـثَ يَحْفِـزُهُ ... هَـمٌّ، يكـادُ شَـباهُ يَحْطِـمُ الضِّلَعـا

مُسَـهَّدُ النَّـومِ ، تَعْنِيـهِ أمورُكُـمُ ... يَـرُومُ فيهـا إلـى الأَعْـداءِ مُطَّلَعـا

ما انْفَكَّ يَحْلُـبُ هـذا الدَّهْـرَ أشْـطُرَهُ ... يكُـونُ مُتَّبَعـاً يومـاً ومُتَّبِعـا

وليـسَ يَشْـغَلُهُ مَـالٌ يُثَمِّـرُهُ ... عنكم ، ولا ولَـدٌ يبغـي لـهُ الرِّفَعـا

حتَّى استَمَرَّتْ علـــى شَــزْرٍ مَرِيرَتُــهُ مُسْتَحْكِمُ الرَّأيِ ، لا قَحْمًا ولا ضَرَعــا
عَبْـلَ الـــذِّراعِ أبِيّــاً ذا مُزابَنَـــةٍ في الحَرْبِ يَحْتَبِلُ الرِّئْبالَ والسَّــبُعا[٦٢]

على هذا النَّحوِ جَسَّدَ الشُّعراءُ أهميَّةَ التروِّي والفطنةِ في معالجـــةِ الأمورِ ، وفي كيفيةِ مُعايشَةِ الآخرِ.

ثانيًا : الخصائصُ الفنيَّة :

إذا كان النَّصُّ الشِّعريُّ يحتوي الكثيرَ مِـــنَ الخصـــائصِ الفنيَّـــةِ المتشعبةِ والمتداخلةِ بين اللَّفظِ والمعنى ، فإنَّنا يمكـــن أنْ نتعـــرَّفَ علـــى مختلفِ هذه العناصرِ من خلالِ بُعدَينِ رئيسين ، أولهما : يتناول الوحـــدةَ البنائيَّةَ الكليَّةَ في النَّصِّ الشِّعريِّ ، وثانيهما : يبحثُ الخصائصَ الجزئيَّـــةَ المتعلِّقةَ بالسِّماتِ الأسلوبيَّةِ والمعنويَّةِ.

١ – البناءُ الفنيُّ :

إن النَّاظِرَ في الوصايا والحكم الشِّعريَّةِ الجاهليَّةِ يلاحِظُ أنَّها ــ في الأغلَبِ الأعمِّ ــ مقطوعاتٌ شعريَّةٌ مستقلَّةٌ ، وقد تأتي في ثنايا القصـــائدِ ذاتِ الموضوعاتِ المتعدِّدة ، وإنْ بَدَا أنَّ النُّصحَ والتَّوجيهَ هـــو الغـــرَضُ الرَّئيسُ من إنشاءِ بعضِ تلكَ القصائدِ إلا ما كانَ مِن قصيدةِ لقيطِ بن يعمر الإيادي فسوفَ نتناولُ بناءَها الفنيَّ فيما بعد.

ولقد أدَّى حِرْصُ الشَّاعرِ الموصي على إفادَةِ الموصَى إلى نُزُوعِـــهِ إلـــى التوجيه الحماسي ، مما دفعَه إلى طَرْحِ الكثيرِ مِن الوصايـــا المتنـــاثرةِ ، وتكرارِ المعاني ، أو استئنافِ تناولِها في الوصيَّةِ الواحدةِ ــ سواء أكانت قصيدةً أو بعضَ قصيدةٍ ــ ممَّا أدَّى إلى شيءٍ مِنَ التفكُّـــكِ البنـــائي ، وإنْ

كانَ الباعثُ على ذلك توكيدَ المعنى في نفسِ الموصَى وحرصَ الموصِي على استقرارِ المعنى في نفسِ السَّامعِ.

-١-

فمن ذلك ما نراه في داليَّةِ عديِّ بنِ زيد[٦٣] التوجيهيَّةِ العامَّةِ ، حينما استهلَّها بمقدِّمةٍ تقليديَّةٍ جسَّدَ فيها شوقَه ودموعَه[٦٤] :

أَتَعرِفُ رَسْمَ الدَّارِ مِن أُمِّ مَعبَدِ
نَعَم فَرَماكَ الشَوقُ بَعدَ التَّجَلُّدِ
كَرَيتَ نَرقُبُ حَبَّها أَن يُحصَدا
ظَلَلتُ بِها أَسقَى الغَرامَ كَأَنَّما
سَقَتنِي النَّدامى شَربَةً لَم تُصَرَّدِ[٦٥]
فَيا لَكَ مِن شَوقٍ وَطائِفِ عَبرَةٍ
كَسَت جَيبَ سِربالي إِلى غَيرِ مُسعِدِ

ثمَّ انتقلَ بعدَ هذه المقدمةِ إلى اللائمةِ التي تلومُه وتعذلُه على كرمِه وإنفاقِه ، فأخبرها أنَّ هذا اللَّومَ في غيرِ موضعِه:

وَعاذِلَةٍ هَبَّتْ بِلَيلٍ تَلُومُنِي فَلَمَّا غَلَتْ فِي اللَّومِ قُلتُ لها : اقصدي
أَعاذِلُ إِنَّ اللَّومَ فِي غَيرِ كُنْهِهِ عَلَيَّ ثِنًى مِن غَيِّكِ المُتَرَدِّدِ

ثمَّ طفقَ يردُّ على عاذلتِه ويعلِّلُ سلوكَه في إقبالِه على البذلِ والإنفاقِ دونَ تردُّدٍ ، وذلكَ من خلالِ إشاعةِ الكثيرِ من الحكمِ والتَّوجيهاتِ

، موضِّحًا أنَّ الجهلَ بحقيقةِ الدُّنيا هو الذي يدفعُ إلى مثلِ هذا اللَّـــومِ ، وأنَّ الإنسانَ إذا عقَلَ واهتدى كُتِبَتْ له السَّعادةُ ، وإذا أخطأَ العقلَ والرَّشادَ كانَ شقيًّا معذَّبًا ، وأنَّه قد اكتسبَ مِنَ الخبرةِ والتَّجربَةِ ما يحميه من هذا السُّقوطِ ، فقالَ معتمدًا على التكرارِ اللَّفظي ، والأصباغِ البديعيَّة:

أعاذِلُ إنَّ الجهلَ من لذَّـــةِ الفتـــى وَإنَّ المَنايـــا للرِّجَـــالِ بمَرصَـــدِ

أعاذِلُ ما أدنى الرَّشادَ مِنَ الفتَـــى وأبعَـــدَهُ منـــــهُ إذا لَـــم يُسَـــدَّدِ

أعاذِلُ مَن تُكتَبْ لَهُ النَّـــارُ يَلقَهَـــا كِفاحًا ومَن يُكتَبْ لَـــهُ الفَـــوزُ يَســـعَدِ

أعاذِلُ قَد لاقَيتُ مَـــا يَـــزَعُ الفَتـــى وَطابَقتُ في الحِجلَينِ مَشيَ المُقَيَّدِ(٦٦)

وما زالَ عَديٌّ في معرضِ الرَّدِّ على عاذلته يُرسي قواعدَ نظرتِـــه إلى الدُّنيا ، وما يترتبُ عليها مِن سلوك ، فبيَّنَ أنَّ الموتَ الذي يـــتربَّصُ بالإنسانِ في كلِّ وقتٍ وحينٍ يجعلُه على قناعةٍ بأنَّ الإنفاقَ في الحياةِ خيرٌ مِن تركِه للوارثِ يستمتعُ به ، فقالَ معتمدًا على الألفاظِ والعباراتِ الدَّالـــةِ على استشعارِه غروبَ شمسِ حياته ، ومؤكِّدًا قناعتَـــه بضـــرورةِ البـــذلِ والإنفاقِ في الحياةِ الدُّنيا :

إلى ساعةٍ في اليَومِ أوفي ضُحَـــى الغَـــدِ

أَعـــاذِلُ مَـــا يُدرِيـــكَ أَنَّ مَنِيَّتِـــي

أَمَامِيَ مِـــن مَـــالِي إذَا خَـــفَّ عُـــوَّدي

ذَرِيني فَما لِي غَيرَ ما أُمـــضِ إن مَضـــى

وَغُودِرتُ قَد وُسِّـــدتُ أَو لَـــم أُوَسَّـــدِ

وَحُمِّـــت لِميقـــــاتٍ إِلَـــيَّ مَنِيَّـــتي

عِتـــابي فَـــإِنّي مُصلِـــحٌ غَـــيرُ مُفسِـــدِ

وَلِلوارِثِ البـــاقي مِـــنَ المـــالِ فَـــاترُكي

ويخلُصُ الشَّاعرُ من ذلك إلى النَّصائحِ والتوجيهاتِ العامَّةِ ، مبينًا أنَّ مَنْ لا ينأى بنفسه عن مواطنِ الغيِّ والضَّلالِ لا يرشُدُ ولا يهتدي :

أَعاذِلُ مَنْ لا يُصلِـــحِ النَّفـــسَ خَالِيًـــا عَنِ اللَّبِّ لا يَرْشُدْ لِقَولِ المُفَنِّـــدِ

ثمَّ أشارَ إلى تجاربه وخبرته موضِّحًا أنَّ الحوادثَ والأيامَ تكفـــي الإنسانَ العبرةَ والعظةَ ، وأنَّه اختبرَ النَّاسَ واختبروه ، وأحاطَ بما كانَ قبلَ مولدِه من أخبارٍ وعبرٍ ، وهو في ذلك لا يخرجُ عن المألوفِ بينَ النَّاسِ ، فقال مستندًا إلى بعضِ الأوضاعِ البديعيَّة التجسيديَّة :

كَفَى زَاجِـــرًا لِلمَـــرءِ أَيّـــامُ دَهْـــرِهِ تَرُوحُ لَـــهُ بِالوَاعِظـــاتِ وَتَغتَـــدي

بُلِيتُ وَأَبلَيـــتُ الرِّجَـــالَ وَأَصبَحَـــتْ سِنُونَ طِوالٌ قَد أَتَتْ دونَ مَولِـــدي

فَلَستُ بِمَن يَخشى حَوادِثَ تَعـــتَري رِجالاً فَبادوا بَعـــدَ بُـــؤسٍ وَأَسـعُدِ

ثمَّ يعودُ ثانيةً موجهًا الإنسانَ إلى ضرورةِ أنْ ينأى بنفســـه عـــن أسبابِ الغيِّ والزَّلَلِ ؛ حتى لا يُهلِك مَنْ يقتدي به ، وأنْ يُفشي المعـــروفَ ولا يبخل على قُصَّادِه في مجالِ نعمائه :

فَنَفسكَ فَاحفَظْها عَنِ الغَيِّ وَالـــرَّدَى   مَتَى تُغوِهَا يَغوَ الَّذي بِكَ يَهتَـــدي

وَإنْ كَانَتِ النَّعمَاءُ عِنـــدَكَ لِـــامرئٍ   فَمَثِّل بِهَا وَاجـزِ المُطَــالِبَ وَارددِ

ويُواصِلُ عَديٌّ نصائحَه وتوجيهاته التَّربويَّة السُّــلوكيَّة المتنــاثرة مبينًا أنَّه يجبُ على الإنسانِ إدراكُ موقفِ الآخرِ منه ؛ فــإذا لــم يضعــه موضعَ رجاءٍ ؛ هوادةً منه ودفاعًا عنه ، فلا يرجُ هو أيضًا منـــه شــيئًا ، وأنَّه ينبغي أنْ يصرفَ قولَه عنه إلى غيره ، وأنْ يعلمَ أنَّه إذا لم يبــدِ لـــه شيئًا من الجفاءِ والصريمةِ فسوف يفعلُ ذلك غــدًا ، وعلــى الإنســانِ أنْ يُسايرَ الرِّجالَ في المزاحِ دونَ جزعٍ أو غضبٍ ، ولذا وجَبَ أن يحتاطَ في اختيارِ الصَّاحبِ الذي يرتضيه :

إِذَا مَا امرُؤٌ لَم يَــرجُ مِنــكَ مَــودَّةً   فَلَا تَرجُهــا مِنــهُ وَلَــا دَفــعَ مَشــهَدِ

وَعَدِّ سِـــوَاهُ القَــولَ وَاعْلَــمْ بِأَنَّـــهُ   إِذَا لَم يَبِنْ فِي اليَومِ يَصرِمْكَ فِي الغَــدِ

وَإن أَنتَ فَاكَهتَ الرِّجالَ فَلَـــا تَلَــغْ   وَقُلْ مِثْــلَ مَـــا قَــالُوا وَلَا تَــتَزَنَّدِ(٦٧)

عَنِ المَرءِ لا تَسأَلْ وَسَلْ عَن قَرِينِهِ   فَكُــلُّ قَرِيـــــنٍ بِالمُقَــارِنِ مُقتَــدِ

وجعلَ ينصحُ بالعفَّةِ عند الطَّلبِ ، وبالحِلْمِ عند إدراكِ الحقِّ :

إِذَا أَنتَ نَازَعتَ الرِّجَـــالَ نَوَالَـــهم   فَعِفَّ وَلَا تَأتِي بِجَهــدٍ فَتُنْكَــدِ

سَتُدرِكُ مِن ذِي الفُحشِ حَقَّــكَ كُلَّـــهُ   بِحِلمِكَ فِي رِفقٍ وَلَــم تَتَشَــدَّدِ

ثمَّ عادَ يتحدَّثُ عَنِ المنيَّةِ مبينًا أنَّها سَتُطيحُ بكلِّ شيءٍ يتعلَّقُ بالدُّنيا مِن الطُّموحاتِ والأمجادِ الموروثةِ والمكتسبةِ التي يحقِّقها الإنسانُ ؛ ولـــذا

يجبُ على المرءِ السَّعيُ والتَّزوُّدُ بأسبابِ الخير:

وَسائسِ أمـــرٍ لَـم يَسُسـهُ أبٌ لَـهُ   ورائـمِ أسـبابِ الَّتـي لَـم تُعَــوَّدِ
ورَاجــي أُمــورٍ جَمَّــةٍ لا يَنالُهـــا   سَتُشعِبُهُ عَنها شَــعوبٌ لِـــمُلحَدِ(٦٨)
ووارثِ مَجـدٍ لَـم يَنَلـهُ وَمـــاجِدٍ   أصابَ بِمَجـدٍ طـارفٍ غَـيرِ مُتلَـدِ
فَلا تَقعُدَن عَن سَعيِ ما قَـد وَرِثتَـهُ   وَما اسطَعتَ مِن خَيرٍ لِنَفسِكَ فَـازدَدِ

ثُمَّ نراه يدعو إلى التَّحلِّي بالعدلِ والتَّروِّي في معالجـــةِ الأمـورِ ، ويحثُّ على التَّوازُنِ مع الآخرِ في طباعِه :

وَبِالعَدلِ فَانطِقْ إِن نَطَقـتَ وَلا تَجُـر   وَذَا الذَّمِّ فَاذمُمهُ وَذَا الحَمدِ فَاحمَدِ

ثمَّ يستأنفُ الشَّاعرُ حديثَه عن أهميَّةِ البذلِ والإنفاقِ مبيِّنًا ما يحقِّقه للإنسانِ من شرفِ السِّيرةِ بينَ أصدقائِه والمحيطينَ به ؛ ولذا يجب علـــى المرءِ أن يتلافى شكوى صديقِه بالعطاءِ والتَّضحيةِ من أجلِه ، كمـــا أنَّـــه ينبغي أنْ لا يقبضَ يدَه عَنِ السَّائلِ ؛ فلعلَّ هذا المحتاجَ يصبـــحُ مـــن ذوي اليسارِ ، ويحتاجُ الموسرُ إليه في الغدِ كما احتاجَ المعسرُ إليه اليومَ.

ثمَّ يُنبِّهُ إلى فضيلَةِ تجنُّبِ البخلِ ؛ حتى ينأى بنفســـه عـــن لـــومِ اللَّائمينَ موضِّحًا أنَّ ذلك أنقى لسيرته بينَ النَّاسِ ، وقد أثبتتِ الأيامُ أنَّ مَن لا يبسطُ يدَه بالعطاءِ يَفْسُدُ أمرُه وتسقُطُ مكانتُه عند النَّاسِ:

وَلا تُلـحِ إِلَّـا مَـن أَلـامَ وَلا تَلُـــمْ   وَبِالبَذلِ مِـــن شَـكوى صَديقِـكَ فَـاقتَدِ
عَسَـى سَـائِلٌ ذو حَاجَـةٍ إِنْ مَنَعتَـهُ   مِنَ اليَومِ سُؤلًا أَنْ يَسُــوءَكَ فِـي غَـدِ

وَلِلبَخْلَةِ الأُولَـــى لِمَــن كَــانَ بَاخِلَــا أَعِــفُّ وَمَــن يَبخَــلْ يُلَــمْ وَيُزَهَّــدِ[٦٩]

وَأَبــدَتْ لِــي الأَيَّــامُ وَالدَّهــرُ أَنَّـــهُ وَلَو حَبَّ مَن لَــا يُصلِــحِ المَــالَ يُفْسِــدِ

ويختم الشَّاعرُ قصيدتَه مشيراً إلى أنَّ خبراته وتجاربه التي مكَّنته من إنتاجِ تلك الطَّائفةِ منَ الوصايا والنَّصائحِ التي ينبغي أن يعيها الإنسانُ؛ سعياً وراءَ الشَّرفِ والمجدِ حتى لو لقيَ حتفَه وبكته نوائحُه ، فطفقَ يحـثُّ على الصَّبرِ إزاءَ النَّوائبِ والنَّوازلِ ، ويدعو إلى نُصرةِ الحقِّ ومواجهـةِ الظُّلمِ ، ويكشِفُ طبيعةَ الأمورِ التي يجب أن يواجهَها الإنسانُ مبيِّنًا أبعادَها وعواقبَها:

وَلاقَيتُ لَـــذَّاتِ الغِنَـــى وَأَصَـــابَنِي قَوَارِعُ مَن يَصْــبِرْ عَلَيهَـا يُخَلَّـدِ

وَمَنْ لَا يَكُنْ ذَا نَاصِرٍ عِنــدَ حَقِّـهِ يُغَلَّبْ عَلَيهِ ذُو النَّصِــيرِ وَيَعتَـدِ

وَفِي كَثْرَةِ الأَيدِي عَنِ الظُّلْمِ زَاجِرٌ إِذَا خَطَرَتْ أَيدِي الرِّجَالِ بِمَشْــهَدِ

وَلِلمَرءِ ذِي المَيْسُورِ خَــيرٌ مَغَبَّــةً مِنَ المَرءِ ذِي المَعسُورَةِ المُــتَرَدِّدِ

سَأَكسِبُ مَجــدًا أَو تَقُــومَ نَوائِــحٌ عَلَــيَّ بِلَيــلٍ نَادِبَــاتِي وَعُــوَّدِي

يَنُحنَ عَلَـــى مَيــتٍ وَأَعلَــنَّ رَنَّـــةً تُؤَرِّقُ عَينِي كُـــلَّ بَــاكٍ وَمُسْــعَدِ

على هذا النَّحو بدت القصيدةُ مفكَّكةً من حيثُ البنـــاءِ العضــويِّ وتسلسلِ الأفكارِ ، ولكن على الرُّغم من ذلك حــرصَ الشَّــاعرُ علــى أن يستمدَّ من تجاربه الذَّاتيَّة ما يُعينُه على تجسيدِ وصاياه .

وقد اعتمدَ في ذلك على الأساليبِ الإنشائيَّةِ المتنوِّعةِ من اســتفهامٍ

وأمرٍ ونهيٍ ونداءٍ وتعجُّبٍ. كما استندَ إلى الشّــرطِ والالتفــاتِ والتكــرارِ اللفظيِّ ... إلى غير ذلك من وسائلِ الجذبِ والإمتاعِ والتّــأثيرِ والإقنــاعِ العاطفيِّ والعقليِّ ، على الرُّغمِ مِن تقريريةِ المعــاني ، وضآلــةِ الصُّــورِ التجسيديةِّ.

-٢-

وأمَّا عَبيدُ بنُ الأبرصِ فقد استهلَّ قصيدتَه الدَّاليَّــة[٧٠] التَّوجيهيَّــة العامَّةَ بمقدمةٍ تقليديَّةٍ بدأها بالوقوفِ على أطلالِ منازلِ صاحبته سَعدَةَ ، ثم انتقلَ منها سريعًا إلى النُّصحِ موصيًا الإنسانَ بــأنْ يحتكِــمَ إلــى العقــلِ ويصغي إلى النصيحةِ ، ويحترمَ عشيرتَه ، ويذودَ عنها قولًــا وعمــلاً ، ويعفو عن السَّفيه الطَّائشِ منهم ، وينزلُ مِن عشيرتِه بمنزلٍ كريمٍ سامٍ.

ثمَّ أشارَ إلى أنَّ مَن لم يتحلَّ بكلِّ هذه الخلالِ فليس مِن أهْلِ السِّيادةِ والشَّرفِ ، فقالَ معتمدًا على التَّشويقِ والتَّرقُّبِ الذي يؤدِّي إلى الإصغاء:

إذا كُنتَ لَم تَعبأ بِرأيٍ ولَــم تُطِــعْ ... لِنُصحٍ ولا تُصغي إلى قَولِ مُرشِــدِ

فــلا تَتَّقــي ذَمَّ العَشــيرَةِ كُلِّهــا ... وتَدفَــعُ عَنهــا بِاللِّســانِ وبِــاليَدِ

وتَصفَحُ عَن ذي جَهلِها وتَحوطُهــا ... وتَقمَــعُ عَنهــا نَخــوةَ المُتَهَــدِّدِ

وتَنزِلُ مِنها بِالمَكــانِ الَّــذي بِــهِ ... يُرى الفَضلُ في الدُّنيا عَلى المُتَحَمِّدِ

فَلَستَ وإنْ عَلَّلتَ نَفسَــكَ بِــالمُنى ... بِذي سُودَدٍ بــادٍ ولا كَــربِ سَــيِّدِ

ولكي يخفِّفَ عبيدٌ مِن نبرةِ التَّقريريَّةِ المباشرةِ فــي وصيَّتِــه راحَ يفتخرُ بخصالِه الحميدةِ موجِّهًا الآخرَ توجيهًا غيرَ مباشرٍ إلى التَّحلِّي بها ،

فتحدَّثَ عن حسنِ معاملتِه لصاحبِه ، وحرصِه علـــى مجالســـةِ الـــودودِ ، وتجنُّبِه معايشةَ اللِّئامِ والبخلاءِ ، وعدمِ تعاليه على أصدقائه.

وهو لا يحاربُ على غيرِ حقٍّ ، و لا يُشعِلُ نيرانَ الحربِ إلاَّ على الظَّالمِ الذي لا يهتدي إلى طريق الحقِّ والصَّوابِ ، وهو يغفـــرُ لصديقـــه ولجارِه الهفوةَ ما لم تُثِرْ غضبَه عليه ، أما مَن يقصدُ ظُلمَه والاعتداءَ عليه فهو كمن يسقطُ مِن أعالي الجبالِ فيلقى حتفَه :

لَعَمرُكَ ما يَخشى الخَليطُ تَفَحُّشـــي ... عَلَيــهِ وَلا أَنـــأى عَلـــى المُتَـــوَدِّدِ
وَلا أَبتَغي وُدَّ امرِئٍ قَـــلَّ خَـــيرُهُ ... وَلا أَنا عَن وَصلِ الصَّديقِ بِـــأَصيَدِ
وَإِنّي لَأُطفي الحَربَ بَعدَ شُـــبوبِها ... وَقَد أُوقِدَت لِلغَيِّ فـــي كُـــلِّ مَوقِـــدِ
فَأُوقِدُها لِلظالِمِ المُصطَلـــي بِهـــا ... إِذا لَم يَزَعـــهُ رَأيُـــهُ عَـــن تَـــرَدُّدُ
وَأَغفِرُ لِلمَولـــى هَنـــاةَ تُريبُنـــي ... فَأَظلِمُهُ ما لَـــم يَنَلني بِمَحقِـــدِي
وَمَن رامَ ظُلمـــي مِنهُـــمُ فَكَأَنَّمـــا ... تَوَقَّصَ حيناً مِن شَواهِقِ صِندِدِ(٧١)

ثمَّ انتقلَ مبيِّنًا أنَّه مجرِّبٌ متمرسٌ في الحياةِ ، يعلمُ أمورَها ويفهـــمُ خلائقَ النَّاس ، ثمَّ انطلقَ يواصلُ رسالتَه نحو توجيهِ الإنسانِ إلى ما ينبغي أن يسلُكَه فأخذَ يحثُّ على تجنُّبِ الخائنِ والحذرِ منه ؛ فهـــو كـــالأجرَبِ ، وإسنادُ الأمانةِ إليه مجلبةٌ للشرِّ ؛ لأنَّه ينكرُها.

ثمَّ أشارَ إلى حرصِه على جارِه ، ونصحَ بـــأن لا يمنَـــحَ المـــرءُ خالصَ ودِّه لأحدٍ قبلَ أنْ يخضعَه للتجربةِ فيتبيَّنُ ما تنطوي عليه نفسُـــه ،

وأن لا يتَّبعَ رأيَ مَن لا يثقُ في صدقِه ووفائه ، وإنما عليه أن يستـــنيرَ بذي الرأي السَّديدِ والعقلِ الرَّزين. كما أخذ يدعو إلى وَصلِ الأقاربِ دونَ الأباعدِ ، وينبِّه الإنسانَ إلى أنَّه إذا سَلَكَ طريقَ العزِّ والمجـد ، فعليـه أن يحافظَ عليه ويتواصلَ فيه:

وَإنِّـي لَـذو رأيٍ يُعـاشُ بِفضلِـهِ ... وَما أَنا مِـنْ علـمِ الأُمـورِ بِمُبتَـدي

إذا أنـتَ حَمَّلـتَ الخَـؤونَ أَمانَـةً ... فَـإنَّكَ قَـد أسـنَدتَها شَـرَّ مُسـنَدِ

وَجَدتُ خَؤونَ القَـومِ كـالعُرِّ يُتَّقـى ... وَما خِلتُ غَـمَّ الجـارِ إلّـا بِمَعهَـدي

وَلا تُظهِرَن حُبَّ امرِئٍ قَبـلَ خُـبرِهِ ... وَبَعدَ بَلاءِ المَـرءِ فَـاذمُم أَوِ احمَـدِ

وَلا تَتبَعَـنَّ الـرَّأيَ مِنـهُ تَقَصُّـهُ ... وَلَكِن بِرأيِ المَـرءِ ذي اللُّـبِّ فَـاقتَدِ

وَلا تَزهَدَن في وَصلِ أَهـلِ قَرابَـةٍ ... لِذُخرٍ وَفـي وَصـلِ الأَبـاعِدِ فَـازهَدِ

وَإن أَنتَ في مَجدٍ أَصَبـتَ غَنيمَـةً ... فَعُد لِلَّـذي صـادَفتَ مِـن ذاكَ وَازدَدِ

ويختمُ عبيدٌ قصيدتَه بأبياتِه الوعظيَّة التي تدعو إلى الـتزوُّدِ مـن الدُّنيا بالعملِ الصَّالح ، فيذكِّر الإنسانَ بعمرِه المحـدَّد ، فـالموتُ يقـفُ بالمرصادِ لكلِّ مَن استحقَّ أجلَه ، ومن لم يمت عاجلاً سيموتُ آجلاً ، وما مضى مِن عمرِ الإنسانِ لا عودةَ له ، وما عليه إلاَّ أنْ يعمـلَ صالحًـا ؛ استعدادًا لملاقاةِ منيَّته، فالموتُ حقيقةٌ حتميَّةٌ ، والنَّاسُ سواسيةٌ أمـامَ هـذا المصيرِ :

تَزَوَّد مِـنَ الدُّنيـا مَتاعًـا فَإنَّـهُ ... عَلى كُلِّ حالٍ خَـيرُ زادِ المُـزَوَّدِ

وَلِلمَـــرءِ أيّـــامٌ تُعَــدُّ وَقَــد رَعَــــت حِبالُ المَنايا لِلفَتـــى كُـــلَّ مَرصَــدِ
مَنِيَّتُـــهُ تَجـــري لِوَقـــتٍ وَقَصــــــرُهُ مُلاقاتُها يَومًا عَلى غَـــيرِ مَوعِــدِ
فَمَن لَم يَمُت في اليَـــومِ لا بُـــدَّ أَنَّـــهُ سَيَعلَقُهُ حَبـــلُ المَنِيَّـــةِ فـــي غَـــدِ
فَقُل لِلَّذي يَبغي خِلافَ الَّذي مَضــــى تَهَيَّأ لِـــأُخرى مِثلِهـــا فَكَـــأَن قَـــدِ
فَإِنّا وَمَـــن قَـــد بـــادَ مِنَّـــا فَكَـــالَّذي يَروحُ وَكَالقاضي البَتاتِ لِيَغتَـــدي

هكذا اتَّسمتْ هذه القصيدةُ التَّوجيهيَّة بالتَّـــنوُّعِ الأسـلوبيِّ بيـن التَّصويرِ التَّجسيديِّ ، والعرضِ التَّقريريِّ الذي يغلبُ عليه الاعتمادُ علـى الإقناعِ العقليِّ. وقد تَوَسَّلَ الشَّاعرُ في ذلك بالألفاظِ السَّــهلة ، والمعـاني الواضحةِ ، والأفكارِ المباشرةِ غيرِ المعقَّدةِ ، والأسـلوبِ الإنشـائيِّ فـي مختلف صورِه ، من أمرٍ ونهيٍ ونحو ذلك ، واصطبغَ النصُّ – كذلـك – بالكثيرِ من الأصباغِ البديعيَّةِ غير المتكلَّفة.

-٣-

وهذا ذو الإصبعِ العَدوانيِّ يوصي ابنَه أُسَيداً بوصايا خُلُقيةٍ متنوعةٍ ومتناثرةٍ ، تدورُ حولَ معاني الكرمِ والسَّخاءِ والشجاعةِ والإقدامِ ، ومعايشةِ الكرامِ ، وتجنُّبِ اللِّئامِ ، والحرصِ على روابطِ الأخوَّةِ والصَّداقةِ.

وقد استهلَّها بالنِّداءِ التَّنبيهيِّ القريبِ ، مبيِّنًا لابنه قيمةَ المالِ الـذي يملِكه ، وداعيًا إيَّاه إلى حسنِ الإنفاق(٧٢) :

أَأُسَــيدُ إِن مـــالاً مَلَكــــ ـــتَ فَسِر بِهِ سَيرًا جَميلا

ثمَّ انتقلَ يقابلُ بينَ فريقين من النَّاس : الكـرام واللِّئـام ، فجعَـلَ يوصيه بمؤاخاةِ الكرامِ والتَّأثرِ بهم ، ويأمرُه بإهانةِ اللِّئامِ وعدمِ الخضـوعِ لهم ، وتجنبِ مصاحبة مَن لم يصدُقْ أهلَه وعشيرتَه ؛ لأنَّه جديـرٌ بـألاَّ يصدُقَ غيرهم :

آخِ الكِـرامَ إنِ استَطَعْـــتَ إلى إخـائِهم سَـبيلا
واشــرَبْ بِكَأسِــهِم وَإن شَرِبوا بِهِ السُّمَّ الثَّميـلا[٧٣]
أهِـنِ اللِّئـامَ وَلا تَكُـن لِإخـائِهِم جَمَـلاً ذَلـولا
إنَّ الكِـرامَ إذا تَـوا خيتَهم وَجَدتَ لَهُـم قَبـولا
وَدَعِ الَّـذي يَعِـدُ العَشِـيرَةَ أن يَسِـيلَ وَلَـن يَسِـيلا

وجعَلَ يحثُّه على الجودِ بالمالِ وعدمِ الضَّنِّ به أو الحزنِ عليـه ، فقال مصوِّرًا المالَ بالإنسانِ القاسي الجافِ الذي لا يتأثر بافتقادِ صديقِه:

أبُنَـيَّ إنَّ المـالَ لا يبكي إذا فَقَدَ البَخيـلا

ثمَّ عادَ يوصي ابنَه بتوطيد علاقتِه بالنَّاسِ ، ويوجِّهه إلى رابطـةِ الأخوةِ والصَّداقةِ ، وإن بَعُدَ المزارُ وتناءتِ الدِّيارُ ، ويخصُّ مَـن يرجـو مودَّته :

أأسَـيدُ إن أزمَعـتَ مِـن بَلَـدٍ إلـى بَلَـدٍ رَحيـلا
فَـاحفَظْ وَإن شَـحَطَ المَـزا رُ أخـا أخيـكَ وَالزَّميـلا

وَاركَـب بِنَفسِـكَ إن هَمَمْــ ـتَ بِها الحُزونَةَ وَالسُهولا

وَصِـلِ الكِـرامَ وَكُـن لِمَـن تَرجـو مَوَدَّتَـهُ وَصـولا

وأوصاه بالاقتصادِ والاعتدالِ في مواجهةِ الأمورِ ، بلا تشـددٍ أو تخاذلٍ:

وَدَعِ التَّواني فـي الأُمـو رِ وَكُن لَها سَلِساً ذَلـولا

ثم استأنفَ وصيَّته عن البذلِ والعطاءِ ، رابطًا ذلك بمـآثرِ آبائـه وأجداده :

وَابسُـط يَمينَـكَ بِـالنَّدى وَامدُد لَهـا باعًـا طَويـلا

وَابسُـط يَدَيـكَ بِمـا مَلَكـتَ وَشَـيِّدِ الحَسَـبَ الأَثيـلا

وعليه أن يقرِنَ الإرادةَ بالحزمِ والعزمِ :

وَاعـزِم إِذا حـاوَلتَ أَمـرًا يُفرِجُ الهَمَّ الدَّخيـلا

ثمَّ عادَ يوصي بالجودِ والسَّخاءِ ، وينهَى عَن البخلِ ، معتمدًا فـي ذلك على تصويرِه تلك الأمورِ المعنويَّة بالمدركاتِ الماديَّةِ الماثلَة في النَّاقةِ والمسكنِ والمتاعِ والمكانِ المرتفعِ مِنَ الأرضِ :

وَابـذُل لِضَيفِـكَ ذاتَ رَحـ ـلِكَ مُكرِمًا حَتّى يَـزولا

وَاحلُـل عَلـى الأَيفـاعِ لِلـ ـعافينَ وَاجتَنِبِ المَسيلا

كما أخذ يدعو إلى التَّحلِّي بالشَّجاعةِ والإقدامِ في ميدانِ الوَغـى ،

وفي وقت الشِّدَّةِ بلا تردد ، فيكون كاللّيثِ الذي يصرعُ فريستَه:

وَإذا القُـــــرومُ تَخــــــاطَرَت يَومًا وَأَرعَــدَتِ الخَصيــلا

فَاهصِر كَهَصــرِ اللَّيـثِ خَضْــ ـــضَبَ مِن فَريسَتِهِ التَّليلا

وَانـــزِل إِلـــى الهَيجــا إِذا أَبطالُها كَرِهــوا الـنُّزولا

ثم يختمُ وصيتَه بمعاودةِ دعوتِه إلى مؤاخاةِ الكــرامِ ، ومــؤازرَةِ المحتاجينَ :

وَإِذا دُعيتَ إِلــى المُهِمْــ ـــمِ فَكُن لِفادِحِهِ حَمولا

على هذا النَّحو اتَّسمَت هذه الوصيَّةُ بوضوحِ أفكارِها ، وتقريريَّــةِ معانيها ، وسهولَةِ ألفاظِها ، وفقدانِ ترابُطِها. وعلى الرُّغم مِــن اعتمــاد الشَّاعرِ على الإقناعِ العقليِّ فقد استند إلى التأثيرِ العاطفي مِن خلالِ بعضِ الصُّورِ التجسيديَّةِ.

– ٤ –

وأمَّا عبدُقيس بنُ خُفافٍ فقد حَشَدَ لابنه جُبيلٍ طائفةً من الوصايــا الأخلاقيَّةِ والتربويَّةِ والاجتماعيةِ التي استخلصَها مِن تجاربِـــه الذَّاتيَّــة ، وذلك في قصيدةٍ تشهدُ على فطنتِه وسموِّ خِلالِه ، وهي تدورُ حولَ علاقةِ الإنسانِ بالآخرِ (الجارِ والضَّيفِ والصَّديقِ والعدوِّ) ، كما تجسِّد ما ينبغي أنْ يتحلَّى به مِن سلوكياتٍ إزاءَ الأحوالِ والمواقفِ المختلفةِ ، فنراه يفتتــحُ الوصيَّةَ بالنِّداءِ القريبِ معبِّرًا عن عاطفتِه الصَّادقةِ تجاهَ ابنه ، داعيًا إيَّــاه إلى المسارعةِ في عظائمِ الأمور[٧٤]:

أجُبَيلُ إنَّ أبـــاكَ كـــاربُ يَومِـــهِ   فإذا دُعيتَ إلى العَظائمِ فـــاعجَلِ

وجعلَ يعبِّر عن فطنتِه وخبرتِه ؛ ليحملَ ابنَـــه علـــى الإصغـــاءِ والتَّرقُّبِ والمتابعةِ:

أوصيكَ إيصـــاءَ امـــرئٍ لَـــكَ نـــاصِحٍ   طَبِنٍ بريبِ الدّهرِ غيرِ مُغَفَّلِ(٧٥)

وانتقلَ يتـــناولُ تلكَ الوصايا المتنوعةِ والمتواليةِ فأخذَ يحثُّ ابنـــه على تقوى الله ، والوفاءِ بنذرِه وبما قطعَه على نفسِه من وعودٍ وعهودٍ ، وأن لا يقصِدَ من وراءِ قسَمِه إذا أقسمَ الجدالَ والممـــاراةَ ، و إلاَّ فعليـــه التَّحلُّل من هذه اليمين:

اللهَ فاتَّقِـــه وأوفِ بنَـــذرِهِ   وإذا حلَفتَ مُمارِيًا فتحلَّـــلِ

ثمَّ أوصاه بإكرامِ الضَّيفِ ، منبِّهًا إلى أنَّ الضيفَ سيذيعُ ما لاقـــاه في بيتِه من خيرٍ أو شرٍّ:

وَالضَّيـــفَ أكرِمـــهُ فَـــإنَّ مَبيتَـــهُ   حَقٌّ ولا تَكُ لُعنَةً للـــنُّزَّلِ(٧٦)

وَاعلَم بأنَّ الضَّيـــفَ مُخـــبِرُ أهلِـــهِ   بمَبيتِ لَيلَتِهِ وإن لم يُســـألِ

وعليه أن يصلَ الصديقَ ــ أومَن صفا له ودُّه ــ ويرفقَ به ، دون أن يخدشَه بقبيحِ القولِ ، وأن يحذرَ الخائنَ المتقلِّبَ :

ودَعِ القَـــوارِصَ للصَّديـــقِ وَغَـــيرِهِ   كَي لا يَرَوكَ مِنَ اللِّئامِ العُـــزَّلِ

وَصِلِ المُواصِلَ مـــا صَفَـــا لَـــكَ وُدُّهُ   واحذَر حِبالَ الخائنِ المُتَبَـــدِّلِ

ونَصَحَهُ – أيضًا – بأن ينأى بنفسِه عن مجالسِ الشَّرِّ والسُّـــوءِ ،

فمَن حلَّ بدارِ الذُّلِّ والهوانِ هانَ أمرُه :

وَاترُك مَحَلَّ السَّوءِ لا تَحلُــل بِــهِ وَإذا نَبا بِكَ مَــــنزِلٌ فَتَحَــوَّلِ

دارُ الهَــوانِ لِمَــن رَآهَـــا دارَهُ أَفَراحِلٌ عَنها كَمَن لَم يَرحَــلِ

وعليه التَّروِّي والتَّأني إذا راودَه خاطرُه بالشَّرِّ ، أمَّــا إذا حدَّثَتــه نفسُه بالخيرِ ، فيتحتَّمُ عليه المسارعةُ إلى ذلكَ :

وَإذا هَمَمتَ بِأَمرِ شَـــرٍّ فَـاتَّئِد وَإذا هَمَمتَ بِأَمرِ خَيرٍ فَــافعَلِ

ودعَاهُ إلى التَّحلِّي بالشَّجاعةِ والبُطولةِ ، وأن يردَّ العدوانَ بمثله ولا يسكتَ عنه:

وَإذا أَتَتكَ مِــنَ العَـدُوِّ قَـوارِصٌ فَاقرُص كَذاكَ وَلا تَقُل لَم أَفعَـلِ

وأوصاه بالتعفُّفِ عند افتقاره ، وبخاصَّةٍ مع غيرِ ذوي الفضلِ:

وَإذا افتَقَــرتَ فَــلا تَكُــن مُتَخَشِّــعًا تَرجو الفَواضِلَ عِنـدَ غَـيرِ المُفضِــلِ

ثمَّ عادَ يستأنفُ وصيتَه حولَ الشَّجاعةِ ، موجبًا على ابنه أن يشــدَّ على العدوِّ ويرهبَه دون تردد ؛ حتى يتَّقيه ويتحاماه كما يتحامى الأجربَ:

وَإذا لَقيتَ القَــومَ فَـاضرِب فيهِـمُ حَتّى يَرَوكَ طِــلاءَ أَجـرَبَ مُهمَـلِ

ثم رجعَ إلى الدعوةِ إلى العفَّةِ والتَّصبُّرِ عند الافتقارِ والاســتغناءِ عن مسألةِ النَّاسِ :

وَاستَغنِ ما أَغناكَ رَبُّكَ بِــالغِنى وَإذا تُصِبكَ خَصاصَــةٌ فَتَجَمَّــلِ

وأخذ يستكملُ وصيته عَن التَّروِّي والتَّأني في أمورِ الحياةِ ، فـــإذا ما انتهى ابنه إلى أمرٍ ما فليتوكل على الله ، وإذا تنازعَ في قلبِه أمـــــرانِ فليعمد إلى الأفضلِ والأجملِ:

وَاستَأنِ حِلمَكَ في أمـــورِكَ كُلِّهـــا وَإذا عَزَمتَ عَلى الهَوى فَتَوَكَّلِ

وَإذا تَشـــاجَرَ فـــي فُـــؤادِكَ مَـــرَّةً أمرانِ فَاعمِد لِلأَعَـــفِّ الأَجمَـــلِ

ويختم عبدُ قيسٍ وصيتَه لابنه ، بمعاودةِ حديثِه عن البذلِ والعطاءِ ، مبيّنًا أنَّه عليه أن يشاركَ الكرامَ في محنتهم ، وأن لا يؤثرَ نفسَه بشـــيءٍ دونهم ، ولو أدى ذلك إلى شعورِه بضنكِ الحياةِ وعسرِها:

وَإذا لَقيتَ الباهِشينَ إِلـــى النَـــدى غُبرًا أَكُفُّهُم بِقاعٍ مُمحِـــلِ[٧٧]

فَأَعِنهُمُ وَايسِر بِمـــا يَسَـــروا بِـــهِ وَإذا هُمُ نَزَلوا بِضَنكٍ فَـــانزِلِ

-٥-

وهذا عمرو بنُ الأهتمِ يوصي ابنَه ربْعيًّا بوصيةٍ ، تدورُ في ثلاثةِ أبعادٍ رئيسةٍ متداخلةٍ ، هي : المحافظةُ على مجدِ الآباءِ والأجدادِ ، والجودِ بالنَّفسِ والمالِ ، واليقظةِ في معايشةِ النَّاسِ ، فراحَ يبين له أنَّ الوصـــولَ إلى المجدِ صعبٌ وشاقٌّ ، ولكنه يعني الكرمَ والعزَّةَ ، فقال بعـــد مقدمـــةٍ تقليديةٍ[٧٨]:

لَقَد أَوصَيتُ رِبعـــيَّ بِـــنَ عَمـــرٍو إِذا حَزَبَت عَشيرَتَكَ الأُمـــورُ

بِأَن لا تُفسِـــدَن مـــا قَـــد سَـــعَينا وَحِفظُ السورَةِ العُليـــا كَبـــيرُ

وَإِنَّ المَجـد أوَّلُـهُ وعُـورٌ ... وَمَصدَرُ غِبِّـهِ كَـرَمٌ وَخَـيرُ

ثم أخذ يبين أنَّ أسبابَ الوصولِ إلى المجد تتمثلُ في التَّضحيـة ، وبذلِ النَّفسِ أو المالِ :

وَإنَّكَ لَن تنَـالَ المَجـدَ حتَّـى ... تَجودَ بِما يَضنُّ به الضَّمـيرُ

بِنَفسِكَ أو بِمـالِك فـي أُمـورٍ ... يَهابُ رُكوبَها الوَرِعُ الدَّثـورُ

وانتقلَ من ذلك موصيًا بحفظِ جارِه وضيفِه عندَ الشَّدائد والمصائب ، ومشيرًا إلى أنَّ هذا الذي سيكرمُه سيذيعُ سيرتَه الحميدةَ بين النَّاسِ :

وَجـارِيَ لا تُهينَنـهُ وَضَيفـي ... إذا أمسى وَراءَ البَيـتِ كـورُ

يَـؤوبُ إلَيـكَ أشعَثَ جَرَّفَتـهُ ... عَـوانٌ لا يُنَهنِهُهـا الفُتـورُ

أصِبـهُ بِالكَرامَـةِ واحتَفِظـهُ ... عَلَيـكَ فَـإنَّ مَنطِقَـهُ يَسـيرُ

واتجه يحذِّره في تعامله مع الآخرين ، من الأصدقاءِ وغيرِهم بألاَّ ينخدعَ بمظاهرِهم ، فقالَ مشيرًا إلى حكمتِـه وخبرتِـه إزاءَ مـا تخفيـه الصُّدورُ:

وَإنَّ مِنَ الصَّديقِ عَلَيـكَ ضِغنًـا ... بَدا لـي إنَّنـي رَجُـلٌ بَصـيرُ

بِـأدواءِ الرِجـالِ إذا التَقَينـا ... وَما تَخفي مِنَ الحَسَكِ الصُّـدورُ

ثم عادَ وأوصاه بالشَّجاعةِ ، وبذلِ النَّفسِ في ميدانِ القتالِ :

فَـإن رَفَعـوا الأعِنَّـةَ فَارفَعَنهـا ... إلـى العُليـا وَأنـتَ بِهـا جَديـرٌ

وَإِن جَهَدوا عَلَيـكَ فَـلا تَهَبهُـم   وَجـاهِدهُم إِذا حَمِـي القَتيرُ

فَإِن قَصَدوا لِمُـرِّ الحَـقِّ فَـاقصِد   وَإِن جاروا فَجُـر حَتّـى يَصيروا

وعلى الطَّريق نفسه ، ختم الشَّاعر قصيدتَه مفتخراً بقوَّته ، وبمجدِ آبائه وأجداده التَّليد ، مما خفف من حدَّةِ التقريريَّة المباشرة ، وأسهم في تجسيدِ قيمةِ الشَّجاعة.

-٦-

وتقفُ قصيدةُ لقيط بنِ يعمُرَ الإياديِّ شامخةً بينَ قصائدِ الوصايا والحكمِ في الشِّعرِ الجاهليِّ ، فهي نصيحةُ شاعرٍ إلى قومه الذين يخشى عليهم الهلاكُ والفناءُ تحتَ سنابكِ جيشِ كسرى ؛ ولهذا كتبَ هذه القصيدةَ ينذرُ فيها قومَه ويستنهضُ هممَهم ، ويحذِّرُهم غزوَ كسرى ويوصيهم بما يراهُ نافعاً لهم في مثل هذه الحال.

كانتْ إيادُ معروفةً بالشَّجاعةِ والعزَّةِ والإباءِ فلم يدنْ أهلُها لملكٍ ، ولم يُصبهم في الجاهلية سِباءٌ ، فكانت إياد أكثرَ نزارٍ عدداً ، وأشدَّهم وأمنعَهم ، وكانتْ بلادُهم تهامةَ ثم رحلوا عنها ونزلوا السَّوادَ من أرضِ العراقِ ، وتغلَّبوا على الجزءِ الجنوبي من نهري دجلة والفرات ، فوقعتْ بينهم وبين الأكاسرةِ حروبٌ كانت سجالاً.

بعد ذلك ارتحلَ الإياديونَ إلى الجزءِ الشَّمالي من دجلةَ والفُراتِ وكان يسمى أرض الجزيرةِ ، ولم يتخلَّ الإياديونَ عن شراستهم وعنفهم والإغارةِ على أرضِ فارس مما أحفظَ عليهم كسرى فعزمَ على تجهيزِ جيشٍ للقضاءِ عليهم ، ولكنَّ لقيطاً علمَ بأمرِ هذه الحملةِ العسكريةِ فكتبَ

هذه القصيدة ينذرُ فيها قومَه ، ويعلِمُهم أنَّ كسرى قد عقَدَ العزمَ على قتالهم وإبادتهم ، يقولُ لقيطٌ[٧٩] :

يـا دارَ عَمْـرَةَ مِـن مُحْتَلَّهـا الجَرَعـا ... هاجَتْ لكَ الهَـمَّ والأَحْـزانَ والوَجَعـا

بل يا أُيُّهـا الرَّاكِـبُ المُزْجِـي مَطِيَّتَـهُ ... إلـى الجَزِيـرَةِ مُرْتَـادًا ومُنْتَجِعـا

أبْلِـغْ إيـاداً ، وخَلِّـلْ فـي سَـراتِهِمُ ... إنِّي أرَى الرَّأيَ ، إنْ لَمْ أعْصَ قد نَصَعا

يـا لَهْـفَ نَفْسِـيَ إنْ كـانَتْ أُمُورُكُـمُ ... شَتَّى ، وأُحْكِمَ أَمْـرُ النَّـاسِ فاجْتَمَعـا

فالشَّاعرُ يخصُّ بوصيَّته سَراةَ إياد وأولي الرَّأي والمشورة فيهـم ؛ لأنَّهـم الأقدرُ على فهمِ معناها والعملِ بما يجب نحوَها ، فهم أولي النُّهى والعزمِ ، وتقديرِ العواقبِ الوخيمة لتفرُّقِ الكلمة وتشتُّتِ الشَّملِ والغفلةِ عمَّا يُرادُ بهم من عدوٍّ عقَدَ العزمَ على قتالهم بينما هم في تفرُّقِ أمرِهـم ، واضطـرابِ أحوالهم كالسَّفينةِ انحرفت عن مسارِها الصحيح ، وانجرفتْ إلى مجـرىً مملوءٍ بالمخاطرِ والأهوالِ ، ولهذا أطلقَ صرختَه ((يا لهفَ نفسي)) معلنًا حسرتَهُ لما آلَت إليه حالُ قومِه من تشرذُمٍ وتفرُّقٍ بينما عدوُّهم مجمعٌ أمره على قتالهم وإفنائهم.

وأخذَ يُوازنُ بينَ تهاونِ قومِه وغفلتِهم وبينَ مَا يُعدُّه العدوُّ من عُدَّةٍ ، فهو يجمعُ الأبطالَ ، ويهيئُ الأسلحةَ ، وكلُّهم حَنَقٌ وغيظٌ ، ولاهمَّ لهـم إلا الإيقاعِ بهم أشدّ وقيعةٍ مؤكِّدًا لهم أنَّ كسرى لا يشفي غليلَه إلا فنـاؤهم وإجلاؤهم عن أرضهم فيقولُ :

ألاَ تَخـافُونَ قَوْمًـا لا أبَـا لَكُـمُ ... أمْسَوا إليكمْ كأمْثالِ الدَّبـا سِـرَعا

أبناءُ قَــومٍ تَــأوَّوكم عَلــى حَنَــقٍ ... لا يَشــعُرونَ أضَــرَّ اللّــهُ أم نَفَعــا

أحرارُ فارسَ أبنــاءُ المُلــوكِ لَهُــم ... مِنَ الجُموعِ جُموعٌ تَزدَهــي القَلَعــا

فَهُم ســراعٌ إِلَيكُــم بيــنَ مُلتَقِــطٍ ... شَوكًا وآخَرَ يَجني الصّابَ وَالسَّــلَعا

لَــو أنَّ جَمعَهُــمُ رامــوا بِهَدَّتِــهِ ... شُمَّ الشَّماريخِ مِن ثَهلانَ لانصَدَعــا

في كُلِّ يومٍ يَسُنّونَ الحِــرابَ لَكُــم ... لا يَهجَعونَ إذا مــا غــافِلٌ هَجَعــا

خُــزرًا عُيونُهُــمُ كَــأَنَّ لَحظَهُـــمُ ... حَريقُ نارٍ تَرى مِنهُ السَّــنا قِطَعــا

لا الحَرثُ يَشغَلُهُم بَل لا يَرَونَ لَهُــم ... مِن دونِ بَيضَتِكُــم رِيًّــا ولا شِــبَعا

والشّاعر في هذه الأبياتِ يرسمُ صورةً لجيشِ كسرى وما تحملُـــه قلوبُهم مِن ضغنٍ وحنقٍ نحو قومه مما جعل هذا الجيشَ حريصًا على أخذ أهبته ، والاستعدادِ في أتمِّ صورةٍ وأحكمِ أمرٍ ، لم يتوانَ في جمــعِ العــددِ الكثيرِ الذي تتهدُّ به الجبالُ ؛ لأنَّه – مع كثرة عدده – جاءَ في أتمِّ عـــدَّةٍ. بينما قومُه يتلهونَ بأموالهم ويحرصونَ على تثميرها غافلين عمَّا يرادُ بهم وما ينتظرهم من سوءِ العاقبةِ ووبيلِ المصيرِ ، فقال:

وأنتــمُ تَحرُثُــونَ الأَرْضَ عَــن سَــفَهٍ ... فــي كُــلِّ ناحيــةٍ تَبْغُــون مُزْدَرَعــا

وَتُلقِحــونَ حِيــالَ الشَّـــولِ آوِنَـــةً ... وتَنتِجــونَ بِــدارِ القُلعَـــةِ الرُبَعـــا

وتَلْبَسُــونَ ثِيــابَ الأَمْــنِ ضاحِيَـــةً ... لا تَجْمَعُون ، وهذا الجَيْشُ قد جَمَعــا

وَقَــد أَظَلَّكُــمُ مِــن شَـــطرِ ثَغرِكُـــمُ ... هَــولٌ لَــهُ ظُلَــمٌ تَغشــاكُمُ قِطَعــا

لقد وُفِّقَ الشّاعرُ في رسمِ صورةِ جيشِ كسرى وما هم عليه من قوةِ عدَّةٍ وعددٍ ، وما يحملونه نحو إياد من بغضٍ ، ولهذا خصَّ بنصحه السَّراةَ العقلاءَ حتى يتدبروا أمرَهم ، ويأخذوا حذرَهم ، ويستعدوا لملاقاة عددهم. وفي تخصيصه السَّراة العقلاء دلالةٌ على حرصِه على انتصارِ قومه ؛ لأن هذه الصِّفةَ التي عليها جيش كسرى تخلعُ قلبَ الجبانِ , وتطيرُ جَنانَه فلا يحسنُ التَّصرفَ , ولا يحكمُ التَّدبيرَ.

ونلحظُ أنَّ أسلوبَ الشَّاعرِ في هذه الأبياتِ التي صوَّرَ فيها جيشَ كسرى وغفلة إياد أسلوبٌ خبريٌ تقريريٌ خالٍ من الأساليبِ الإنشائية كالأمر ، والنَّهي ، والنِّداء وغيرها.

ثم يصفُ شعورَه العميقَ نحو قومه وخوفَه الشَّديدَ من أن يصيبَهم مكروهٌ فيفصحُ عن حالته النَّفسية مبينًا أنَّ ذلك يقُضُّ مضجعَه ويسببُ له الهمَ والقلقَ مما يجعله لا يشعر بالهدوء ويتمنى من صميمِ قلبه أن يفشَل هذا الهجومُ ، فيقول :

ما لي أَراكُم نِيامًا في بُلَهنِيَةٍ	وَقَد تَرَونَ شِهابَ الحَربِ قَد سَطَعا
فَاشفوا غَليلي بِرَأيٍ مِنكُمُ حَسَنٍ	يُضحي فُؤادي لَهُ رَيّانَ قَد نَقِعا
وَلا تَكونوا كَمَن قَد باتَ مُكتَنِعًا	إِذا يُقالُ لَهُ افرِج غُمَّةً كَنَعا

وهذه الأبياتُ تحفلُ بأساليبِ التَّعجُّبِ كقوله : ((مالي أراكم نيامًا)) ، والأمر في قوله : ((فاشفوا غليلي)) ، والنهي كقوله : ((لا تكونوا)) ...

ومِن شدَّةِ إخلاصِه لقومِه يشيرُ عليهم بما يراه نافعًا لهم ، فنصحهم باتِّحادِ الكلمةِ ، وضمِّ الصُّفوفِ ، والاستمساكِ بالحزم ، والاستعدادِ للحربِ ، وتدبيرِ وسائِلِها وامتلاكِ عدَّتها ، وبثِّ العيونِ والأرصادِ ، والاحتراس

من المفاجأة. وجاءَتِ الأساليبُ الإنشائيةُ طاغيةً في هذا الجزء من القصيدةِ ، فيقول :

فَاقنَوا جِيادَكُمُ وَاحموا ذِمارَكُمُ

وَاستَشعِروا الصَبرَ لا تَستَشعِروا الجَزَعا

وَلا يَدَع بَعضُكُم بَعضًا لِنائِبَةٍ

كَما تَرَكتُم بِأَعلى بيشَةَ النَخَعا

صُونُوا جِيادَكُمُ ، واجْلُوا سُيُوفَكُمُ

وجَدِّدُوا للقِسِيِّ النَّبْلَ والشَّرَعا

واشْرُوا تِلادَكُمُ في حِرْزِ أَنْفُسِكُمْ

وحِرْزِ نِسْوَتِكُمْ لا تَهْلِكُوا جَزَعا

أَذْكُوا العُيُونَ وَراء السَّرْحِ ، واحْتَرِسُوا

حتّى تُرَى الخَيْلُ مِن تَعْدائِها رُجُعا

قُومُوا قِيامًا على أَمْشاطِ أَرْجُلِكُمْ

ثُمَّ افْزَعُوا ، قد يَنالُ الأَمْرَ مَن فَزِعا

فَإِن غُلِبتُم عَلى ضِنٍّ بِدارِكُمُ

فَقَد لَقيتُم بِأَمرٍ حازِمٍ فَزَعا

ثم يركِّزُ على خطورةِ التَّلهي بالأموالِ واستثمارِها ، ويستحثُّ غيرةَ قومِه على نسائِهم ومواطنِهم والمحافظةَ على ما ورِثوا من عزٍّ طارفٍ وتليدٍ ، ويبينُ لهم خطرَ التَّهاونِ في الدِّفاع عن الوطنِ وما يجلبُه من ذلٍّ وعارٍ وجلاءٍ عن الأوطانِ ، فيقول :

لا تُلهِكُم إِبِلٌ لَيسَت لَكُم إِبِلٌ ... إِنَّ العَدُوَّ بِعَظمٍ مِنكُمُ قَرِعا

لا تُثمِروا المالَ لِلأَعداءِ إِنَّهُمُ ... إِن يَظهَروا يَحتَووكُم وَالتِّلادَ مَعا

هَيهاتَ لا مالَ مِن زَرعٍ وَلا إِبِلٍ ... يُرجى لِغابِرِكُم إِن أَنفُكُم جُدِعا

ويردُّهم إلى الواقعِ وهو أنَّ الذَّليلَ المغلوبَ لا يستفيدُ من مالِه مهما كثرَ ؛ لأنَّ الأموالَ لا تتبعُ صاحبَها بل هي غنيمةٌ للفائزِ ، فيقول :

وَاللَهِ ما انفَكَّتِ الأَموالُ مُذ أَبَدٍ ... لِأَهلِها إِن أُصيبوا مَرَّةً تَبَعا

ثم تأخذُه الشَّفقةُ على قومِه فيُكَرِّرُ النِّداء : ((يا قوم)) مستنهضًا هممَهم ، مذكِّرًا إيَّاهم بالمحافظةِ على المجدِ التَّليد ، والعزِّ القديمِ ، ومستَحثًّا غيرتَهم على النِّساءِ والحرم ، فيقول :

يا قَومِ إِنَّ لَكُم مِن إِرثِ أَوَّلِكُم ... مَجداً قَد أَشفَقَتُ أَن يَفنى وَيَنقَطِعا

ماذا يُرَدُّ عَلَيكُم عِزُّ أَوَّلِكُم ... إِن ضاعَ آخِرُهُ أَو ذَلَّ وَاتَّضَعا

يا قَومِ لا تَأمَنوا إِن كُنتُمُ غُيُرًا ... عَلى نِسائِكُمُ كِسرى وَما جَمَعا

يا قَومِ بَيضَتُكُم لا تُفجَعُنَّ بِها ... إِنّي أَخافُ عَلَيها الأَزلَمَ الجَذَعا

هُوَ الجَلاءُ الَّذي يَجتَثُّ أَصلَكُـــمُ فَمَن رَأى مِثلَ ذا رَأيًا وَمَن سَـــمِعا

وبعد أن أثارَ فيهم النخوةَ ، وأشعلَ فيهم الحميَّةَ أخذَ يبينُ لهم مـــا يجـبُ عليهم لدرءِ هذا الخطرِ ، فقال :

قوموا قِياماً عَلى أَمشاطِ أَرجُلِكُـــم ثُمَّ اِفزَعوا قَد يَنالُ الأَمنَ مَـــن فَزِعـا

وَقَلِّـدُوا أَمرَكُـمُ ، للّـهِ دَرُّكُـمُ ، رَحْبَ الذِّراعِ ، بِأَمرِ الحربِ مُضْطَلِعـــا

لا مُتْرَفًا إِنْ رَخاءُ العَيْشِ ســـاعَدَهُ ولا إِذا عَـضَّ مَكْـرُوهٌ بِـهِ خَشَـــعا

لا يَطْعَمُ النَّـــومَ إِلاَّ رَيْـثَ يَحْفِـزُهُ هَمٌّ ، يكَـــادُ شَـباهُ يَحْطِـمُ الضَّلَعـا

مُسَهَّدُ النَّـــوْمِ ، تَعْنِيـهِ أُمورُكُـمُ يَـرُومُ فِيهـا إِلـى الأَعْـداءِ مُطَّلَعـــا

ما اِنْفَكَّ يَحْلُبُ هذا الدَّهْرَ أَشْـطُرَهُ يكُـونُ مُتَّبَعًـــا يومًـــا ومُتَّبِعـــا

ولَيـسَ يَشْـغَلُهُ مَـالٌ يُثَمِّـــرُهُ عنكُم ، ولا ولَـدٌ يبغِـي لَـهُ الرِّفَعَـا

حتَّى اسْتَمَرَّتْ على شَزْرٍ مَرِيرَتُـــهُ مُسْتَحْكِمُ الرَّأْيِ ، لا قَحْمًا ولا ضَرَعـــا

عَبْـلَ الـذِّراعِ أَبِيًّـا ذا مُزابَنَـــةٍ في الحَرْبِ يَحْتَبِـلُ الرِّنْبـالَ والسَّـبُعا

وقد زاوجَ الشَّاعرُ في أسلوبه بينَ الخبرِ والإنشاءِ ، ونلحظُ غلبةَ الأسلوبِ الخبريِّ على الأبياتِ ؛ لأنَّه يقررُ حقائقَ يجبُ إتباعَها ولذلك جاءتِ الصُّورُ البلاغيةُ في صورةِ أسلوبِ الكنايةِ ، مثل قوله : ((رَحْبَ الذِّراعِ ، بـــأَمْرِ الحربِ مُضْطَلِعا)) كنايةً عن القوَّةِ وشدَّةِ التحملِ ، وقولـــه : ((مُسَـــهَّدُ النَّوْمِ)) كنايةً عن السَّهر في سبيلِ رفعةِ قومِه ، وما أجملَ الكنايةَ عـــن

قوة الشَّكيمة والخبرة بالحياة في قوله : ((يَحْلُبُ هذا الدَّهْرَ أَشْطُرَهُ)) ، وقوله : ((اسْتَمَرَّتْ على شَزْرٍ مَرِيرَتُهُ)).

أمَّا أسلوبُ الإنشاءِ فلم يأتِ إلاَّ في ثلاثةِ مواضعَ تقتضي الهمَّة والحرصَ في قوله : ((قوموا قياما)) ، وقوله : ((افزعوا)) ، وقوله : ((وقلِّدوا)) ، فقد جاءت على صورة الأمرِ الذي يفيدُ النُّصحَ والإرشادَ.

ويختمُ قصيدتَه ناصحًا قومَه ومحذرًا من عواقبِ الإهمالِ ، فيقول :

لَقَد بَذَلتُ لَكُم نُصحي بِلا دَخَلٍ فَاستَيقِظوا إِنَّ خَيرَ العِلمِ ما نَفَعا

هَذا كِتابي إِلَيكُم وَالنَذيرُ لَكُم فَمَن رَأى رَأيَهُ مِنكُم وَمَن سَمِعا

والقصيدةُ على هذا النحو تعبرُ عن عاطفةٍ سامية ، وجاءت مترابطةَ الأفكارِ متلاحمةَ المعاني لا يشعر القارئ بأي تفكُّكٍ أو تكرارٍ غير مفيدٍ ، ونلحظ في أسلوبها سماتِ الشِّعر الجاهلي ، وطابع البداوة ، ولعله يختلفُ – بعض الشئ – عن الشِّعر الجاهلي الذي نعرفه ، فمعاني القصيدة مرتبةٌ ومتماسكةٌ وفيها مسحةٌ من سهولة اقتضتها بيئةُ الشَّاعر وثقافتُه واتصالُه بالحياة الفارسية. ثمَّ إنَّ مناسبةَ موضوعِ القصيدةِ قد أدَّى الشاعرَ إلى أن ينشئ قصيدته وهو في حالة تأمُّلٍ وتفكُّرٍ فجاءت القصيدةُ في فكرةٍ عامَّةٍ واحدةٍ ، ومضمونٍ متَّسقٍ ، تُحلِّيها بعضُ الصُّورِ البيانيةِ غيرِ المتكلَّفة.

ولعلَّه قد تجلَّى لنا من خلال استعراضِ هذه الطَّائفة من قصائدِ الوصايا والحكم ، أنَّها تتَّسمُ بسماتٍ فنيَّة عامَّةٍ تتمثلُ في الصِّدقِ العاطفي ، والتَّفكك البنائي ، ووضوحِ المعاني والأفكارِ ، وسهولة الألفاظِ ، وكثرة

الأساليبِ الإنشائية التوجيهية ، وقلَّةِ الصُّورِ ، وعلى الرُّغم من ذلك ، فقد تمكن الشعراء من التأثير في وجدان المتلقي وعقله.

ثانياً: السِّماتُ الأسلوبيَّة والمعنويَّة :

لعلَّه قد تبين من خلالِ وقوفنا على القيَمِ المضمونيَّة والبناءِ الفنـــيِّ في شعرِ الوَصايا والحكم الجاهليَّة أنَّ الألفاظَ سهلةٌ لا غريبَ فيها ، وكذلك كانت المعاني واضحةً مُبَاشرَةً لا غموضَ فيها ولا التِواء. كما تبينَ الكثيرُ من الخصائصِ الفنيِّة الأسلوبيِّة ، فتارةً يعتمدُ الشَّـــاعرُ علـــى العبـــاراتِ الإنشائيةِ ، وثانيةً يتَّكئ على الأسلوبِ الشَّرطيِّ ، وثالثةً يغْلبُ عليه النُّزوعُ إلى التَّقريرِ ، ورابعةً يلجأُ إلى التَّصويرِ التجسيديِّ ، وخامسةً يعمَـــدُ إلـــى الأصباغِ البديعيَّةِ غير المتكلِّفةِ ، وسادسةً يتَّجه إلـــى التكـــرارِ اللَّفظـــي ، وسابعةً يستندُ إلى الاستطرادِ ... وهكذا يستفيدُ من تنوُّعِ السِّماتِ الإسلوبيَّة وتداخُلِها مما يُبرِزُ صعوبةَ إدراكِ كلِّ سِمَةٍ مستقلةً عن غيرِها.

ويمكنُ ردُّ ذلك إلى العاملِ اللغويِّ ، فاللغةُ الحاملةُ لهـــذا الـــتراثِ الجاهليِّ مِن الشِّعرِ كانت المعينَ الذي أعتمدَ عليه اللغويـــونَ بعـــد فشـــوِّ التدوينِ والتأليف ، وكانت الأرضيَّةَ الصلبةَ التي بنى عليها النحاةُ أحكامهم ، فجاءت شاعريَّةَ الجاهليين نابعةً من سماتِ لغتهم التَّعبيريَّة التي الخلاَّقة.

من ذلك ما نراه في مقطوعةِ امرىء القيسِ وتأمُّلاته حولَ حقيقـــةِ الوجودِ ، حيث أخذَ يبين أنَّ النَّاسَ تسرعُ في آجالها وخطاها نحو الموتِ ، وهم في غيبةِ اللَّهو والملذاتِ. ويشيرُ إلى أنَّ الإنسانَ في ضَعفه وضآلتـــه مثلُ العصافيرِ والذُّبابِ والدُّودِ ، ولكنَّه عندَ ارتكابِ الآثامِ أجرأُ من الذئابِ:

أرانا موضعِينَ لِـــأمرِ غَيـــبِ ‏ ‏ ‏ ‏ وَنُســحَرُ بِالطَّعــامِ وَبِالشَّـــرابِ
عَصـــافيرٌ وَذِبَّـــانٌ وَدودٌ ‏ ‏ ‏ ‏ وَأَجرأُ مِـــن مُجَلَّحَـــةِ الذِّئـــابِ(٨٠)

ثم أخذَ يتحدَّثُ عن نفسِهِ مبيِّنًا أنَّه تحلَّى بمكارمِ الأخـــلاقِ واتجــه إليها بكلِّ همَّةٍ ، ثمَّ وضَّحَ أنَّه اكتسبَ منَ الخبرةِ والتجربةِ ما يُعينُه علـــى إدراكِ حقيقةِ أنَّ الموتَ قد أفنى كلَّ ما بينَه وبين آدمَ – عليه السَّلام – من نَسَبٍ ؛ فلا شكَّ في استلابِهِ روحَه ، فسيفنَى جسمُه وسيعود ترابًــا وهــو الذي طافَ الصَّحراءَ ، وقادَ الجيوشَ ، وغزا الأعداءَ ، وظفرَ بالغنـــائمِ... ولكن لا مهربَ مِن الموتِ.

وجعلَ يتساءلُ : هل يمكنُ بعدَ فناءِ آبائه وأجدادِه – وهم الملـــوكُ أصحابُ القبابِ والتيجانِ – أنْ يرجو العطفَ واللِّينَ من صروفِ الدَّهـــرِ التي أتتْ على الجبَالِ والهضابِ حتى أذابتها وأزالتها ؟.

إنَّه على يقينٍ مِنْ أنَّ المنيَّةَ ستُنْشِبُ فيه أظفارَها وأنيابَهـــا ، كمـــا كانَ مصيرُ أبيه وأجدادِه. يقول معتمـــدًا علـــى التَّصويـــر التجســـيديِّ ، والاستفهامِ التعجبيِّ ، والاستطرادِ ، والتكرارِ المعنويِّ :

وَكُلُّ مَكـــارِمِ الأَخـــلاقِ صـــارَت ‏ ‏ ‏ ‏ إِلَيهِ هِمَّتـــي وَبِـــهِ اكتِســـابي
فَبَعــضَ اللَـــومِ عـــاذِلَتي فَـــإِنّي ‏ ‏ ‏ ‏ سَتَكفيني التَجارِبُ وَانتِســـابي
إِلى عِرقِ الثَّرى وَشَجَت عُروقي ‏ ‏ ‏ ‏ وَهَذا المَوتُ يَسلِبُني شَبابي(٨١)
وَنَفسي سَوفَ يَســـلِبُها وَجِرمِـــي ‏ ‏ ‏ ‏ فَيُلحِقُنـــي وَشـــيكًا بِـــالتُّرابِ

أَلَم أُنـــضِ المَطِـــيَّ بِكُــلِّ خَــرقٍ أَمَقِّ الطولِ لَمّاعِ السَّـــراب[٨٢]
وَأَركَبُ في اللُّهامِ المَجْــرِ حَتّـى أَنالَ مَآكِلَ القُحمِ الرِّغـــاب[٨٣]
وَقَد طَوَّفتُ فــي الآفــاقِ حَتّـى رَضيتُ مِنَ الغَنيمَـــةِ بِالإِيــابِ
أَبَعدَ الحارِثِ المَلِكِ ابــنِ عَمــروٍ وَبَعدَ الخَيرِ حُجرٍ ذي القِبــابِ
أُرَجّي مِن صُروفِ الدَّهـــرِ لينــاً وَلَم تَغفَل عَنِ الصُمِّ الهِضــابِ
وَأَعلَــمُ أَنَّنـــي عَمّـــا قَريـــبٍ سَأَنشَبُ في شَبا ظُفرٍ وَنابِ[٨٤]
كَما لاقـــى أَبـــي حُجــرٌ وَجَــدّي وَلا أَنسى قَتيـــلاً بِـــالكُلابِ[٨٥]

كما يتجلَّى التَّنوعُ الأسلوبيُّ عند طَرَفَةَ بن العبدِ ، حينمـــا جَسَّـدَ طائفةً مِنَ الحِكَمِ المتناثرةِ ، مازجًا بين العباراتِ التَّصويريَّـــةِ والتَّقريريَّـــةِ فأوضَحَ أنَّ صغارَ الأمورِ تثيرُ كبارَها، وقد يؤدِّي ذلك إلى القتالِ وإراقـــةِ الدِّماء.

ثمَّ بيَّنَ أنَّ الظُلمَ يقضي على الحياةِ ويغيِّرُ معناها الصَّافي ، كمـــا يُخلَطُ الماءُ بالسُّمِّ الزُّعافِ ، وأنَّ مخالطةَ الخبيثِ الفاسدِ تُعدي ، كمـــا أنَّ الصحيحَ يعديه الأجربُ ، وأنَّ من طُبِعَ على الشَّرِّ والفسادِ لا أمَـــلَ فـــي إصلاحِهِ ، ومَن يحبُّ الخيرَ ويفعلُه فهو آمِنٌ من كلِّ سوءٍ.

ثمَّ إنَّ مِن شأنِ العاقلِ المأمولِ خيرُه أنْ يكونَ صادقًا في أقوالِه وأفعالِـــه ، وأمَّا مخالفةُ الحقِّ ، والميلُ إلى الغدرِ ، فمِنْ شأنِ الدَّنيءِ الخسيسِ ، وهذا مآلُه الخسرانُ والهلاكُ.

يقولُ معتمدًا على الطِّباقِ والمقابلةِ بينَ مختلف المعاني :

قَد يبعَثُ الأمــرَ العظيـمَ صَغيرُهُ ... حتّـى تظَـلَّ لَـهُ الدِّمـاءُ تَصَبَّبُ

وَالظُّلمُ فَـرَّقَ بيـنَ حيَّـي وائـلٍ ... بَكـرٌ تُسـاقيها المَنايـا تَغلِـبُ

قَـد يـوردُ الظُّلـمُ المُبيَّـنُ آجِنًـا ... مِلحًا يُخالَطُ بِالذُّعـافِ وَيُقشَـبُ[٨٦]

وَقِرافُ مَـن لا يَسـتَفيقُ دَعـارَةً ... يُعدي كَما يُعدي الصَّحيحَ الأَجرَبُ

وَالإِثـمُ داءٌ لَيـسَ يُرجـى بُـرؤُهُ ... وَالـبِرُّ بُـرءٌ لَيـسَ فيـهِ مَعطَـبُ

وَالصِّدقُ يَأْلَفُـهُ الكَريـمُ المُرتَجـى ... وَالكِذبُ يَأْلَفُـهُ الدَّنـيءُ الأَخيَـبُ[٨٧]

ويقدِّمُ طَرَفَةُ بنُ العبدِ طائفةً أخرى من تلـك الحكـمِ التَّقريريَّـةِ المباشِرةِ المتناثرةِ ، حيثُ يبيِّنُ أنَّ المرءَ الذي لا يستطيعُ أن ينفـعَ بـودِّه ذوي قرابتِه ، ولا يقدرُ على عدوِّه ، لاقيمةَ له. وأنَّه لا فائدةَ تُرجى مـن خيرٍ يعقُبُه شرٌّ ، ولا من مكانٍ تقيمُ فيه ويقصدُك إليه مَن كانَ له ثأرٌ لديكَ. وأنَّه يجبُ اختيارُ الصَّاحبِ من خلالِ عشيرتِه ، فيقولُ مستندًا إلى الطِّباقِ والمقابلةِ ، والتَّكرارِ اللَّفظيِّ :

إذا أنتَ لَـم تنفَـع بِـودِّكَ قُربَـةً ... ولَم تنكِ بِالبُؤسى عَدوَّكَ فَـابعَدِ

وَلا خيرَ في خَيرٍ تَرى الشَّرَّ دونَهُ ... وَلا قـائلٍ يَـأتيكَ بَعـدَ التَّلَـدُّدِ

عَنِ المَرءِ لا تَسأَل وَسَل عَن قَرينِهِ ... فَكُلُّ قَرينٍ بِالمُقارِنِ يَقتَـدي[٨٨]

كما نراه يقابلُ بينَ فضيلةِ الخيرِ ورذيلةِ الشَّرِّ في قوله:

الخَيرُ خَيرٌ وَإِن طالَ الزَّمانُ بِهِ وَالشَّرُّ أَخبَثُ ما أَوعَيتَ مِن زادِ(٨٩)

وما زلنا معَ تأملاتِ طَرَفَةَ الحَكيمةَ ، وخواطرِه المتناثرةِ المفكَّكةِ ، حيثُ راحَ يتساءَلُ متعجبًا : كيف يضلُّ المرءُ عنِ الحقِ والصَّوابِ ، وسُبُلُ القصدِ واضحةٌ جليَّةٌ لذوي العقولِ المستنيرةِ ؟.

ثمَّ هو ذا يرى أنَّ المرءَ يَعزُّ بأقاربِه ويقوَى بهم ، فإذا ذلُّوا هانَ أمرُه وذلَّ. ويرى أنَّ لسانَ المرءِ يظهرُ مساوئَه إذا لم يكن له عقلٌ يرشدُه ويردُّه عن القبيحِ.وأنَّه إذا غضبَ من مُزاحٍ لا يُقصَدُ به سوءٌ فهو جهولٌ ناقصُ العقلِ. وأنَّ النَّاسَ إذا تقابلوا يشعرُ كلٌّ منهم بميلٍ أو كراهيةٍ تجاه الآخر.

يقولُ معتمدًا على الوسائل البيانية كالاستفهامِ ، والأمرِ، والطِّباقِ:

وَكَيفَ تَضِلُّ القَصدَ وَالحَقُّ واضِحٌ وَلِلحَقِّ بَينَ الصَّالِحينَ سَبيلُ

وَأَعلَمُ عِلمًا لَيسَ بِالظَّنِّ أَنَّهُ إِذا ذَلَّ مَولى المَرءِ فَهوَ ذَليلُ

وَإِنَّ لِسانَ المَرءِ ما لَم تَكُن لَهُ حَصاةً عَلى عَوراتِهِ لَدَليلُ

وَإِنَّ امرَأً لَم يَعفُ يَومًا فُكاهَةً لِمَن لَم يُرِد سوءً بِها لَجَهولُ

تَعارَفُ أَرواحُ الرِّجالِ إِذا التَقَوا فَمِنهُم عَدُوٌّ يُتَّقى وَخَليلُ(٩٠)

ويجسِّدُ المنقَّبُ العبديُّ قيمةَ الوفَاءِ بالوعدِ ، والتَّصبُّرِ من أجلِ ذلكَ ، مبيِّنًا أنَّ إخلافَ الوعدِ ذمٌّ ، وأنَّه ينبغي تجنُّبُ أسبابِ الذَّمِّ ، فيقول معتمدًا

على مهاراته اللغويَّة ، وتقليباته المعنوية واللفظيَّة بين (نعم) و(لا) ، والنهي والأمر:

لا تَقولَنَّ إذا ما لَم تُرِد ... أن تُتِمَّ الوَعدَ في شَيءٍ نَعَم

حَسَنٌ قَولُ نَعَم مِن بَعدِ لا ... وَقَبيحٌ قَولُ لا بَعدَ نَعَم

إنَّ لا بَعدَ نَعَم فاحِشَةٌ ... فَبِلا فَابدَأ إذا خِفتَ النَّدَم

فَإذا قُلتَ نَعَم فَاصبِر لَها ... بِنَجاحِ الوَعدِ إنَّ الخُلفَ ذَم

وَاعلَم اَنَّ الذَّمَّ نَقصٌ لِلفَتى ... وَمَتى لا يَتَّقِ الذَّمَّ يُذَم[٩١]

وهذا النَّابغةُ الذُّبيانيُّ يحذِّرُ مِنَ الدَّهر ، فهو أشبَهُ بالحيوانِ المفترسِ ذي المخالبِ القاتلة ، أو هو أشبهُ بذي النِّبالِ الفاتكةِ الذي لا يتركُ أناسًا من ذوي المجدِ والمكرماتِ – أو من غيرهم– إلَّا ويتربَّصُ بهم بمخالبه أو بنباله ، كما يتربصُ بفريسته ، فسهامُ الموتِ مسلَّطةٌ فوقَ الرؤُوسِ جميعًا ، لا تستثني أحدًا ، عاجلاً أم آجلاً... فقالَ متكئًا على الصُّورِ التَّجسيديَّة القائمةِ على التشبيهاتِ والاستعاراتِ والكناياتِ :

مَن يَطلبِ الدَّهرُ تُدرِكهُ مَخالِبُهُ ... وَالدَّهرُ بِالوِترِ ناجٍ غَيرُ مَطلوبِ

ما مِن أُناسٍ ذَوي مَجدٍ وَمَكرُمَةٍ ... إلّا يَشُدُّ عَلَيهِم شِدَّةَ النِّيبِ[٩٢]

حَتّى يُبيدَ عَلى عَمدٍ سَراتَهُمُ ... بِالنافِذاتِ مِنَ النَّبلِ المَصاييبِ

إنّي وَجَدتُ سِهامَ المَوتِ مُعرِضَةً ... بِكُلِّ حَتفٍ مِنَ الآجالِ مَكتوبِ[٩٣]

وهنا يخاطبُ النَّابغةُ المرءَ الذي يتمنى العيشَ طويلاً في هذه الحياة ، مبيّنًا أنَّ طولَ العيشِ قد يجرُّ عليه الشَّقاءُ ... فيقول مقرِّرًا ، ومقابلاً بين المعاني المتباينةِ ، حيث تَقَلَّبُ الأحوالُ بين النعيمِ والسَّعادةِ ، والمرارةِ والشَّقاءِ :

المَرءُ يَأمُلُ أن يَعيشَ وَطولُ عَيشٍ قَد يَضُرُّه

تَفنى بَشاشَتُهُ وَيَبقى بَعدَ حُلوِ العَيشِ مُرُّه

وَتَخونُهُ الأَيّامُ حَتّى لا يَرى شَيئًا يَسُرُّه

كَم شامِتٍ بي إِن هَلَكتُ وَقائِلٍ لِلّهِ دَرُّه(٩٤)

وهذا الأعشى أبو بصيرٍ يجسِّدُ قيمَ الكرمِ والضيافةِ وإغاثةِ الملهوفِ ، مبيّنًا أنَّ ضوءَ النَّارِ علامةٌ على ذلك. يقول معتمدًا على التكرارِ اللَّفظي ، والأسلوبِ الكنائي :

مَتى تَأتِهِ تَعشو إِلى ضَوءِ نارِهِ تَجِد خَيرَ نارٍ عِندَها خَيرُ مَوقِدِ(٩٥)

ثمَّ نعود للنابغةِ وتأمُّلاته حيث يقابلُ بين الصَّديقِ والعدوِّ ، مشيرًا إلى أنَّ المرءَ إذا لم يمنح صديقَه الحبَّ والودَّ فلن يضرَّ بُغضُهُ عدوَّه:

إِذا أَنا لَم أَنفَع خَليلي بِوُدِّهِ فَإِنَّ عَدُوّي لا يَضُرُّهُم بَغضي(٩٦)

ويتَّكيءُ عنترةُ العبسيُّ على التَّقسيمِ اللَّفظي وأسلوبِ النَّفي في نهيهِ عنِ الحقدِ والغضبِ ، وفي تبيانه أنَّ مَن تعلو به مراتبُه وفضائلُه لا يحقدُ ولا يغضبُ. يقولُ :

لا يَحملُ الحقدَ مَن تَعلو بِه الرُّتَــبُ ... وَلا يَنالُ العُلا مَن طَبعُهُ الغَضَــبُ[٩٧]

وإذا أرادَ أن يحذِّرَ مِنَ الخُبثِ والمراوَغَةِ والتَّقلُّبِ ، تجدُه يعتمِــــدُ على التَّصويرِ التَّجسيديِّ من خلالِ استدعائه طبيعةَ الأفاعي ، فيقولُ:

إنَّ الأفَــاعي وَإن لانَــت مَلامِسُــــها ... عِندَ التَّقلُّبِ في أنيابِها العَطَــبُ[٩٨]

وتجدُه يعتمدُ على التَّكرارِ اللَّفظي والطَّلبِ والمقابلةِ بينَ طيبِ العزِّ ومرارةِ الذُّلِّ في قولِه:

لا تَسقِني ماءَ الحَياةِ بِذِلَّةٍ ... بَل فَاسقِني بِالعزِّ كَأسَ الحَنظَــلِ

ماءُ الحَياةِ بِذِلَّــةٍ كَجَهَنَّــمٍ ... وَجَهَنَّمٌ بِالعزِّ أَطيَــبُ مَــنزِلِ[٩٩]

كما تجده يستندُ إلى المقابلةِ بينَ المعاني ، في معــرضِ تجســيده فضيلةَ الشَّجاعةِ والإقدامِ ، وذلك من مُنْطَلَقِ حتميَّةِ المــوتِ ، حيــث راح يبيِّنُ أنَّ الفرارَ من ميدانِ الحربِ لا يمكن أنْ يقبلَه الكرامُ الأحرارُ ؛ إذ أنَّ الموتَ لا يكونُ وقفًا على مَن يخوضُ المعاركَ دونَ غيره.

ثم طفقَ يقابلُ بينَ عودةِ الشَّيخِ من ميادين القتالِ والمــوت ســالمًا غانمًا ، وبين موتِ الطِّفلِ الرَّضيعِ الآمنِ في مهدِه. كما قابلَ بيـــنَ الــذُّلِّ والعزِّ ؛ ليصلَ إلى حقيقةٍ مفادُها أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يرتقيَ بنفســه عن منازلِ الذُّلِّ والهوانِ ليصلَ إلى المجدِ والعزِّ.

يقولُ مخاطبًا أمَّه التي كانت تخشى عليه القتــلَ ، معتمــدًا علــى الأسلوبِ الحماسيِّ:

تُعَنِّفُنـــي زَبيبَـــةُ فـــي المَـــلامِ عَلى الإقدامِ فـــي يَـــومِ الزِّحـــامِ
تَخافُ عَلَيَّ أن ألقَـــى حِمـــامي بِطَعنِ الرُّمحِ أو ضَـــربِ الحُســـامِ
مَقـــالٌ لَيـــسَ يَقبَلُـــهُ كِـــرامٌ وَلا يَرضـــى بِـــهِ غَـــيرُ اللِّئـــامِ
يَخوضُ الشَّيخُ في بَحرِ المَنايا وَيَرجِعُ ســـالِماً وَالبَحـــرُ طـــامي
وَيَأتي المَوتُ طِفلاً في مُهـــودٍ وَيَلقـــى حَتفَـــهُ قَبـــلَ الفِطـــامِ
فَـــلا تَـــرضَ بِمَنقَصَـــةٍ وَذُلٍّ وَتَقنَـــع بِـــالقَليلِ مِـــنَ الحُطـــامِ
فَعَيشُكَ تَحتَ ظِلِّ العِـــزِّ يَومـــاً وَلا تَحتَ المَذَلَّةِ أَلـــفَ عـــامِ[١٠٠]

وتَتَجلَّى المعاني الواضحةُ ، والألفاظُ السَّهلةُ اللَّينـــةُ ، والتقريريَّـــةُ المباشرةُ ، والعباراتُ المقسَّمةُ ، في تأمُّلاتِ عَبيدِ بنِ الأبرصِ الذي قـــدَّم طائفةً من العباراتِ الحِكَميَّةِ المتناثرةِ المتنوعةِ التي دارت حـــولَ الكـــونِ والحياةِ والإنسانِ ، فأوضح حقيقةَ التغيرِ والتقلُّبِ في الحياةِ الدُّنيا ، مبيِّنـــا أنَّ كلَّ ذي نعمةٍ سيفقدُ نعمتَه ، وكلَّ مؤملٍ لن يحققَ كلَّ آمالِه ، كمـــا أنَّ مُلكَ الإنسانِ مُوَرَّثٌ لغيرِه مِن بعده ، ومَن سَلَبَ شيئًا مِن غيرِه ، فَسَيُسلَبُ منه يومًا.

ثمَّ إنَّ الموتَ يأتي على الجميعِ ، فكلُّ غائبٍ يعودُ إلى أهلِه ، أمَّـــا مَن غيَّبَه الموتُ فلا رجعةَ له. ولا تستوي التي تَلِدُ والعاقرُ العقيـــمُ ، ولا يستوي مَن أغارَ فغنِمَ ومَن أغارَ فخسِرَ. وقد يبلغُ الضَّعيفُ ما لا يدركُـــه القويُّ ، وقد يُؤتى الأريبُ مِن قِبَلِ عقلِه.

ومَن لم يتَّعظْ بالدَّهر فإنَّ النَّاس لا يقدِرُونَ علـى عِظَتِـه ، وقـد ينقلـبُ الصَّديقُ عدوًّا، والعدوُّ صديقًا. وإذا حللتَ بأرضِ قومٍ ، فساعدهم وأعنْهـم على أمورِهم ، ولا تهمل ذلك بحجَّةِ أنَّك غريبٌ ، فقـد يقطـعُ النَّـاسُ ذا قرابتهم ويصِلُونَ الأباعدَ ... فقال في عباراتٍ مفكَّكةٍ لا رابـطَ بينهـا ، معتمدًا على التكرارِ اللَّفظيِّ ، أو اللَّفظِ ومشتقاته:

فَكُـلُّ ذي نِعمَـةٍ مَخلوسُـها ... وَكُـلُّ ذي أَمَـلٍ مَكـذوبُ

وَكُـلُّ ذي إِبِـلٍ مَوروثُهـا ... وَكُـلُّ ذي سَـلَبٍ مَسـلوبُ

وَكُـلُّ ذي غَيبَـةٍ يَـؤوبُ ... وَغـائِبُ المَـوتِ لا يَـؤوبُ

أَعـاقِرٌ مِثـلُ ذاتِ رِحـمٍ ... أَم غَانِمٌ مِثـلُ مَـن يَخيـبُ

أَفلِح بِما شِئتَ فَقَد يدرَكُ بِالـ ... ـضَّعفِ وَقَد يُخدَعُ الأَريـبُ

لا يَعِظُ النَاسُ مَن لَم يَعِظِ الـ ... ـدَّهـرُ وَلا يَنفَـعُ التَّلبيـبُ

لا يَنْفَـعُ اللُّـبُ عَـن تَطَلُّـمٍ ... إِلاَّ السَّـجِيَّاتُ والقُلُـوبُ

فقدْ يَعُـودَنْ حبيبًـا شـانِيءٌ ... ويَرْجِعُـنْ شـاتِنًا حبيـبُ

ساعِدِ بِأَرضٍ إِذا كُنـتَ بِهـا ... وَلا تَقُـل إِنَّنـي غَريـبُ

قَد يوصَلُ النَّازِحُ النَّائي وَقَـد ... يُقطَعُ ذو السُّهمَةِ القَريبُ[١٠١]

كما يطلعنا زُهيرُ بنُ أبي سُلمَى في خاتمةِ معلَّقتِه على طائفةٍ مـن الحِكَمِ التَّأمُّليَّةِ المتناثرةِ التي لا رابطَ بينها، سوى خدمةِ هدفِه الأصيلِ مـن

القصيدةِ ، وهو التَّروِّي في معالجةِ الأمورِ ، والاعتبارِ والعظَـةِ ، وهـذه كلُّها – وغيرها – تؤدي إلى الارتقاءِ بالإنسانِ نحوَ السَّعادةِ المنشودةِ.

وقد اعتمدَ زهيرٌ في ذلكَ على الأسلوبِ الشَّرطي ، سواءٌ أكان ذلك من خلالِ العباراتِ التَّقريريَّةِ المباشرةِ ، أم كانَ ذلكَ متمثلاً فـي الصّـورِ التجسيديَّةِ ، فراحَ يبيِّنُ أنَّ المنايا فـي اختطافهـا أرواحَ النَّـاسِ كالنَّاقـةِ العَشواءِ التي تخبطُ في اللَّيلِ على غيرِ هدًى ، فمَن أصابته أردَتْهُ ، ومَـن أخطأته عاشَ وعُمِّرَ حتى يُدْرِكَه الهرمُ.

والمرءُ لا يعلمُ سوى ما مرَّ به في أمسه ، أو ما يمرُّ به في يومه ، أمَّا عن المستقبلِ فلا يعلمُ عنه شيئًا. وأمَّا المرءُ الذي لا يجاملُ النَّـاسَ ولا يداريهم في كثيرٍ مِن أمورِ الحياةِ فسيُصَابُ بما يكره ، وسيُقرعُ بالقبيحِ من القولِ. ومن بَخِلَ على قومِه بما حباه اللهُ مِن فضلٍ فإنَّ قومَه سينبذونَه ويذُمُّونَه.

رَأَيتُ المَنايا خَبطَ عَشواءَ مَن تُصِب — تُمِتهُ وَمَن تُخطِئ يُعَمَّـر فَيَهـرَمِ

وَأَعلَمُ عِلمَ اليَـومِ وَالأَمـسِ قَبلَـهُ — وَلَكِنَّني عَن عِلمِ ما في غَدٍ عَمـي

وَمَن لا يُصانِع فـي أُمـورٍ كَثـيرَةٍ — يُضَرَّس بِأَنيـابٍ وَيوطَـأ بِمَنسِـمِ

وَمَن يَكُ ذا فَضلٍ فَيَبخَـل بِفَضلِـهِ — عَلى قَومِهِ يُستَغنَ عَنهُ وَيُذمَمِ[١٠٢]

ومَن لا يمنع عشيرتَه يذلُّ ، واصطنـاعُ المعـروفِ جُنَّـةٌ دون العرضِ ، كما أنَّ مَن قدَّم معروفًا في غيرِ أهلِه عادَ عليه بـالذَّمِّ والنَّـدم. ومَن لا ينأ بنفسِه عَن الدنايا ومَوَاطنِ السِّبابِ والإقذاعِ لا يُكرمه النَّـاس.

ومَن لانَ للنَّاس ظلمُوه واستضَامُوه. ومَن خافَ المنايا أو كرِهَهـــا فإنَّهـــا ستناله ولو حاولَ الهربَ من قدرِه إلى أجوازِ الفضاء. ومَن لا يقبلِ الصُّلحَ المتمثِّل بالزِّجِّ الذي لا يُقاتَلُ به فإنَّه سيخضَعُ للحربِ الممثَّلةِ بالسِّنانِ ؛ أي : إنَّ مَن لا يقبل الأمرَ الصَّغيرَ الهيِّنَ فسيُضطر إلـــى أنْ يركـــبَ الأمـــرَ الكبيرَ الصَّعبَ.

وَمَن يَجعَلِ المَعروفَ مِن دونِ عِرضِهِ يَفِرهُ وَمَن لا يَتَّقِ الشَّـــتمَ يُشـــتَمِ

وَمَن لا يَذُد عَـــن حَوضِـــهِ بِســـلاحِهِ يُهَدَّم وَمَن لا يَظلِمِ الناسَ يُظلَـــمِ

وَمَن هـــابَ أَســـبابَ المَنِيَّـــةِ يَلقَهـــا وَلَو رامَ أَسبابَ السَّـــماءِ بِسُـــلَّمِ

وَمَن يَعصِ أَطـــرافَ الزِّجـــاجِ فَإِنَّـــهُ يُطيعُ العَوالي رُكِّبَت كُلَّ لَهذَمِ(١٠٣)

ومَن وَفَّى مَا يجبُ عليه لا يُذمُّ ، ومَن كانَ في صدرِه برٌّ اطمـــأنَّ وسكَنَ ، ومَن بَعُدَ عن قومِه ونزَلَ فيمَن لا يعرفونه التبَسَ عليه الأمرُ فلم يُفَرِّقْ بين العدوِّ والصديقِ. ومَن لا يزل يثقلُ على النَّاسِ ويحمِّلُهم أمـــورَه استثقلوه وسئموه. ويُخطِئُ مَن يظنُّ أنَّه يستطيع أن يُخفي خلالَه عَنِ النَّاس ؛ لأنَّه سرعانَ ما سينكشف بما يجربونَ منه.

وَمَن يوفِ لا يُذمَم وَمَن يُفـــضِ قَلبُـــهُ إِلـــى مُطمَئِـــنِّ الـــبِرِّ لا يَتَجَمجَـــمِ

وَمَن يَغتَرِب يَحسِـــب عَـــدُوّاً صَديقَـــهُ وَمَـــن لا يُكَـــرِّم نَفسَـــهُ لا يُكَـــرَّمِ

وَمَهما تَكُن عِندَ امـــرِئٍ مِـــن خَليقَـــةٍ وَإِن خالَها تَخفى عَلى الناسِ تُعلَـــمِ

وَمَن لا يَزَل يَستَحمِلُ النـــاسَ نَفسَـــهُ ... وَلا يُغنِها يَومًا مِنَ الدَّهرِ يُسأَمِ(١٠٤)

ومِن الواضحِ فيما سبقَ من الأبياتِ كيـفَ اسـتفادَ زهـيرٌ مـن الأصباغِ البديعيَّةِ العفويَّة ، والتكـرارِ اللَّفظـي ، والتقلُّـب بيـن الفعلِ ومشتقاته.

وأمَّا أبو بصيرٍ الأعشى فقد اعتمـدَ علـى الأسـلوبِ الإنشـائيِّ التَّقريريِّ التوجيهيِّ في وصيَّته التي زَعَمَ أنَّهُ أخذَها عن أبيه ، وهي تحثُّ على إكرامِ الضَّيفِ ، وحمايةِ الجارِ ، والاستبسالِ في القتالِ ، فقالَ مستنداً إلى التكرارِ اللَّفظي :

إنَّ الأَعَـزَّ أبانـا كـانَ قـالَ لَنـا ... أوصيكُـمُ بِثَـلاثٍ إنَّنـي تَلِـفُ

الضَيفُ أوصيكُمُ بِـالضَيفِ إنَّ لَـهُ ... حَقًّـا عَلَـيَّ فَأُعطيـهِ وَأَعـتَرِفُ

وَالجارُ أوصيكُـمُ بِالجـارِ إنَّ لَـهُ ... يَومًا مِنَ الدَّهرِ يَثنيـهِ فَيَنصَـرِفُ

وَقاتِلوا القَـومَ إنَّ القَتـلَ مَكرُمَـةٌ ... إذا تَلَوَّى بِكَفِّ المُعصِمِ العُرُفُ(١٠٥)

ويتَجلَّى الأسلوبُ الاستطراديُّ حينما يتناولُ الأعشى حتميَّةَ الموتِ ، فقد أخذَ يهوِّنُ على نفسِهِ ما أصابَه مِنَ الهرم ، وذلكَ مِن خلالِ إبـرازِهِ ضآلةَ الدُّنيا أمامَ الموتِ ، معتمدًا في ذلك على سردِهِ طرَفًـا مِـن أخبـارِ الملوكِ والوجهاءِ الغابرينَ من العجمِ والعربِ ، مبيِّنًا أنَّه على الرغم ممـا كانوا فيه مِن التَّرفِ والنَّعيمِ والعزَّةِ والمنَعَةِ والمجدِ فإنَّهم لـم يسـتطيعوا الفرارَ مِن الموتِ الذي يأتي على كلِّ البشرِ وغيرِهم دونَ أن يفرِّق بيـن عظيمٍ وحقيرٍ.

يقولُ مخاطبًا الإنسانَ ومازجًا بينَ الاستعراضِ التَّاريخيِّ الخطابيِّ والتَّصويرِ التَّجسيديِّ :

فَما أَنــتَ إِن دامَــت عَلَيــكَ بِخــالِدٍ ... كَما لَم يُخَلَّد قَبــلُ ساسـا وَمُـورَقُ

وَكِسرى شَهِنشاهُ الَّذي ســارَ مُلكُــهُ ... لَهُ ما اشتَهى راحٌ عَتيــقٌ وَزَنبَــقُ

وَلا عادِيًا لَم يَمنَــعِ المَــوتَ مالُــهُ ... وَردٌ بِتَيمــاءَ اليَهــــودِيِّ أَبلَــقُ

بَنــاهُ سُــلَيمانُ بــنِ داوُودَ حِقبَــةً ... لَــهُ أَزَجٌ عــالٍ وَطَــيٌ مُوَثَّــقُ

يُــوازي كُبَيــداءَ السَّــماءِ وَدونَــهُ ... بَــلاطٌ وَدارَاتٌ وَكِلــسٌ وَخَنــدَقُ

لَهُ دَرمَــكٌ فــي رَأسِــهِ وَمَشــارِبٌ ... وَمِســكٌ وَرَيحــانٌ وَراحٌ تُصَفَّــقُ

وَحورٌ كَأَمثــالِ الدُمــى وَمَنــاصِفٌ ... وَقِــدرٌ وَطَبّــاخٌ وَصــاعٌ وَدَيسَــقُ

فَذاكَ وَلَم يُعجِز مِــنَ المَــوتِ رَبَّــهُ ... وَلَكِــن أَتــاهُ المَــوتُ لا يَتَــأَبَّقُ

وَلا المَلِــكُ النُعمــانُ يَــومَ لَقيتَــهُ ... بِإِمَّتِــهِ يُعطــي القُطــوطَ وَيَــأفِقُ

وَيُجبى إِلَيــهِ السَّــيلَحونَ وَدونَهــا ... صَريفونَ في أَنهارِهــا وَالغَوَرنَــقُ

وَيَقسِمُ أَمــرَ النَّــاسِ يَومًــا وَلَيلَــةً ... وَهُــم ســاكِتونَ وَالمَنِيَّــةُ تَنطِــقُ

وَيَــأمُرُ لِلمَحمــومِ كُــلَّ عَشِــيَّةٍ ... بِقَــتٍّ وَتَطيــقٍ وَقَــد كــادَ يَســنَقُ

يُعـــالى عَلَيـــهِ الجُـــلُّ كُـــلَّ عَشِـــيَّةٍ وَيُرفَـــعُ نُقـــلاً بِـــالضُحى وَيُعَـــرَّقُ

فَذاكَ وَما أَنجَى مِـــنَ المَـــوتِ رَبَّـــهُ بِساباطَ حَتّى ماتَ وَهوَ مُحَزرَقُ[١٠٦]

هكذا يتبينُ لنا من خلالِ ما قدَّمنـــاه مـــن النَّمـــاذجِ المضمونيَّـــة والأسلوبيَّة المتنوعةِ حول شعرِ الوصايا والحكمِ أنّ المعاني والأفكارَ كانت – في الغالبِ – واضحةً بسيطةً لا تعقيدَ فيها ولا غموضَ فلسفي ولا إيحاء رمزي شأنها في ذلك شأنُ ســـائرِ المعـــاني فـــي مختلـــفِ الأغـــراضِ والموضوعاتِ الجاهليَّة. كما أنَّها كانت حقائقَ تقريريَّة تُسْرَدُ ســـردًا وقـــد يشوبُها الخيالُ ليزيدَها تأثيرًا وإمعانًا في الوضوحِ والجلاء.

وقد اتَّسمت هذه المعاني – في أغلبِها – بالثَّبـــاتِ والمحدوديَّـــة ؛ حيثُ تجدُ الشُّعراءَ يدورونَ حولَ معانٍ تكادُ تكونُ واحدةً ، ومن هنا يتجلَّى لنا تلاقي الشُّعراءِ حولَ الكثيرِ من تلك المعاني.

من ذلكَ ما نراه في تجسيدهم سَعَةَ تجربتِهم وخبرتِهم في الحيـــاة ممَّا يحملُ المتلقي في عمومِه على الإصغاءِ والتَّرقُّب. فهذا عنترةُ العبسيُّ يقول :

حَنَّكَتني نَوائِبُ الدَهرِ حَتّـــى أَوقَفَتني عَلى طَريقِ الرَشادِ[١٠٧]

كما يقولُ عَبيدُ بنُ الأبرَص:

وَإِنّي لَذو رَأيٍ يُعاشُ بِفَضلِـــهِ وَما أَنا مِن عِلمِ الأُمورِ بِمُبتَدي[١٠٨]

ويخاطِبُ عبدُ قيسِ بنُ خُفافٍ ابنَه جُبيلاً قائلا:

أوصيكَ إيصـــاءَ امـــرئٍ لَـــكَ نـــاصِحٍ   طَبِنٍ بِرَيْبِ الدَّهرِ غَيرِ مُغَفَّلِ(١٠٩)

وهذا الأعشى القيسي يقولُ :

سَأوصي بَصيراً إن دَنَـــوتُ مِـــنَ البِلَـــى   وَصاةَ امرئٍ قاسى الأُمورَ وَجَرَّبا(١١٠)

وهذا حاتِمٌ الطَّائيُّ يبيِّنُ لنا سلوكيَّاته مع الأخرين ، ويُوضِّـــحُ مـــا ينبغي أنْ يتحلَّى به العاقلُ التَّقيُّ حيالَ الآخر الكريـــمِ أواللَّئيـــمِ ، مؤكِّـــداً ضرورةَ التَّرفُّعِ عَن اللِّئامِ وتجنُّبهم ومعاداتِهم ، وبذلِ الجهـــدِ مـــن أجـــلِ مُعايشةِ الكرامِ الأشرافِ فيقول:

إذا شِئتَ ناوَيتَ امرأَ السوءِ ما نَـــزا   إِلَيكَ وَلاطَمتَ اللَّئيـــمَ المُلَطَّمـــا

وَذو اللُبِّ وَالتَقوى حَقيـــقٌ إِذا رَأى   ذَوي طَبَعِ الأَخلاقِ أَن يَتَكَرَّمـــا

فَجاوِر كَريمًا وَاقتَـــدِح مِـــن زِنـــادِهِ   وَأَسنِد إِلَيهِ إِن تَطاوَلَ سُلَّما(١١١)

ومثلُهُ ما أوصى به ذو الإصبعِ العَدوانيُّ ابنَه في قوله:

آخِ الكِرامَ إِنِ استَطَعْـــ   ـــتَ إِلى إِخائِهِمُ سَـــبيلا

وَاشرَب بِكَأسِـــهِمُ وَإِن   شَرِبوا بِهِ السَمَّ الثَّميـــلا

أَهِنِ اللِّئـــامَ وَلا تَكُـــن   لِإِخائِهِم جَمَلاً ذَلولا(١١٢)

وهذا طَرَفَةُ بنُ العبدِ يتناولُ حتميَّةَ الموتِ وملازمتَه المـــرءَ فـــي قوله:

أَرى المَوتَ لا يُرعي عَلـــى ذي قَرابَـــةٍ   وَإِن كانَ في الدُنيا عَزيزًا بِمَقعَدِ(١١٣)

فيُذكِّرنا بما قالَه عنترةُ العبسي في هذا الصَّدد:

فَالمَوتُ لا يُنجيكَ مِـــن آفاتِــهِ　　　حِصنٌ ولَو شَيَّدتَهُ بِالجَندَلِ(١١٤)

ونستدعي قولَ عَديٍّ بن زيدٍ:

أَعاذِلَ إِنَّ الجَهلَ مِن لَـــذَّةِ الفَتـــى　　　وَإِنَّ المَنايا لِلرِّجالِ بِمَرصَدِ(١١٥)

وقولَ السَّموأل بن عادياء:

كَيــفَ السَّــلامَةُ إِن أَرَدتُ سَــلامَةً　　　وَالمَوتُ يَطلُبُنـــي وَلَســتُ أَفــوتُ

وَأَقيلُ حَيــثُ أَرى فَــلا أَخفــى لَــهُ　　　وَيَرى فَلا يَعيا بِحَيــثُ أَبيــتُ(١١٦)

وما قاله زهيرُ بنُ أبي سُلمى أيضًا:

وَمَن هابَ أَسبابَ المَنِيَّــةِ يَلقَهـــا　　　وَلَو رامَ أَسبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ(١١٧)

ومن منطلقِ حتميَّةِ الموتِ راحَ الشُّعراءُ يوجِّهونَ إلـــى ضــرورةِ العملِ لذلكَ اليومِ ، فإذا تحدَّثَ طَرَفَةُ بنُ العبدِ عن هذا المعنى في قولِه:

لَعَمرُكَ ما الأَيــامُ إِلّــا مُعــارَةٌ　　　فَما اسطَعتَ مِن مَعروفِها فَتَزَوَّدِ(١١٨)

أدركنا قولَ عبيدِ بنِ الأبرص:

تَزَوَّد مِنَ الدُّنيا مَتاعًــا فَإِنَّــهُ　　　عَلى كُلِّ حالٍ خَيرُ زادِ المُزَوَّدِ(١١٩)

وتَذَكّرنا قولَ عَديٍّ بنِ زيدٍ:

فَلا تَقعُدَن عَن سَعيِ مــا قَــد وَرِثتَــهُ　　　وَما اسطَعتَ مِن خَيرٍ لِنَفسِكَ فَــازدَدِ(١٢٠)

وقولَ زهيرِ بنِ أبي سُلْمَى :

تَزَوَّد إلى يوم المماتِ فإنَّــهُ ولَو كرِهتَهُ النَّفسُ آخرُ موعِدِ(١٢١)

وحينما يُوَجِّه المثقَّبُ العبديُّ إلى ضرورةِ التَّرَفُّعِ عنِ الدَّنايا فــي قوله:

وَاعلَمَ اَنَّ الــذَّمَّ نَقــصٌ للفتــى ومَتى لا يَتَّقِ الذَّمَّ يُذَمِ(١٢٢)

نجدُ حاتمًا الطَّائيَّ يقولُ :

فَنَفسَكَ أكرِمهــا فَــإنَّكَ إن تَهُــن عَلَيكَ فَلَن تُلفي لكَ الدَّهــرَ مُكرِمــا(١٢٣)

ومثله زهيرُ بنُ أبي سُلمى :

وَمَن يَغتَرِب يَحسَــب عَــدُوًّا صَديقَــهُ ومَن لا يُكَرِّم نَفسَهُ لا يُكَرَّمِ(١٢٤)

وإذا أوصى النَّابغةُ الذُبيانيُّ بالحرْصِ على الصَّديق :

وَاســتَبقِ وِدَّكَ للصَديــقِ ولا تَكُــن قَتَــبًا يَعَضُّ بِغــارِبٍ مِلحَاحَــا(١٢٥)

أدركنا ما قاله عبدُ قيس بنِ خُفَافٍ حولَ المعنى نفسه:

وَدَعِ القَــوارِصَ للصَّديــقِ وَغَــيرِهِ كَي لا يَرَوكَ منَ اللِّئامِ العُزَّلِ(١٢٦)

كما تَلاقَى الشَّعراءُ كثيرًا حولَ الإيصاءِ بإكرامِ الجارِ والضَّيــفِ ، فهذا المثقَّبُ العبديُّ يقولُ :

أكرِمُ الجارَ وأَرعَــى حقَّــهُ إنَّ عِرفانَ الفَتى الحقَّ كَرَم(١٢٧)

ومثله ذو الإصبعِ العَدواني :

وَابــذُل لِضَيفِــكَ ذاتَ رَحـــ ـــلِكَ مُكرِمًا حَتّـــى يَــزولا[١٢٨]

ومثله عبدُ قيس بن خُفاف:

وَالضَّيفَ أكرِمهُ فَـــإنَّ مَبيتَـــهُ حَقٌّ وَلا تَكُ لُعنَةً لِلنُّزَّلِ[١٢٩]

وهو قولُ الأعشى:

الضَّيفُ أوصيكُـــمُ بِـــالضَّيفِ إنَّ لَـــهُ حَقًّـــا عَلَـــيَّ فَأُعطيـــهِ وَأَعـــتَرِفُ

وَالجـــارُ أوصيكُـمُ بِالجـــارِ إنَّ لَـــهُ يَومًا مِنَ الدَّهرِ يَثنيهِ فَيَنصَرِفُ[١٣٠]

وقولُ عمرٍو بنِ الأهتَمِ :

وَجارِيَ لا تُهينَنَـــهُ وَضَيفـــي إذا أمسى وَراءَ البَيتِ كُورُ[١٣١]

على هذا النَّحوِ وقفنا على السِّماتِ الأسلوبيَّةِ والمعنويَّةِ في شِـــعرِ الوصايا والحِكمِ الجاهليَّةِ وتبينَ لنا أنَّه على الرُّغمِ مِـــن غَلَبَـــةِ الأسـلوبِ الإنشائيِّ التَّقريريِّ فقد مرَّت بنا كثيرٌ مِن الصُّورِ التجسيديَّة ، كما تبين لنا سهولةُ الألفاظِ ، ووضوحِ المعاني وثباتها بين الشُّعراءِ. بيدَ أنَّنا نـــرى أنَّ هذا التَّلاقي بين الشُّعراءِ قد يصلُ إلى حدِّ التضمينِ الكلِّي لفظًا ومعنـــى ، وقد يكونُ ذلك من طريقِ اختلافِ الرِّواياتِ حولَ نسبَةِ النَّصِّ الواحدِ لأكثر مِن شاعرٍ واحدٍ.

خاتمة

يحسنُ بنا في ختامِ هذه الدِّراسة أن نوجزَ النَّتائجَ التي آلت إليهـــا مفرداتُها ، فقد اتَّضحَ من دراسةِ الوصايا والحكم في الشِّعر الجاهلي كيفَ كانَ الشَّاعرُ شاهدَ عيانٍ على يفرزه وينتجُه مجتمعُه من مكوِّناتٍ جماعيَّـة وعيَّةٍ في الكرمِ والجودِ والإقدامِ واستلهامِ همومِ الجماعة ، بل إنَّ الشَّاعرَ غدا – بحقٍّ – منتَجًا ومكونًا رئيسيًّا من همومِ مجتمعِه، فهو ((الـــدال)) و((المدلول)) في آنٍ .

ومن الثَّابتِ في ميدانِ النقدِ أنَّ شعرَ البداوةِ يفوقُ – في أيِّ أمَّةٍ – شعرَ الحضارةِ في عنفوانه ومصداقيته والتصاقه بالواقعِ والتَّاريخِ التصاقًا حميماً. ((إنَّ خيرَ أشعارِ الشُّعوبِ هو ما قالته أيامَ بداوتها الأولى ، حتى ليخيلُ إلينا أنَّ الشِّعرَ الجيدَ لا تستطيعه إلا النُّفوسُ الوحشيَّةُ الغفلُ القويَّةُ ، وإذا استطاعَه أحدٌ من المتحضرين فهو في الغالبِ رجلٌ أقربُ إلى الفطرةِ منه إلى المدنيَّةِ العقليَّة المعقدة))[١٣٢] .

ولقد تجسدتْ هذه الروحُ الوثائقيةُ ، وهذه المصداقية فـــي الشـــعر الجاهلي ، فعلى الرغم من أنَّ هذا الشعر لم يطمح إلى العالميَّة كمـــا هـــو معلومٌ بطبيعة الحال ، إلا أنَّه نالها وسَلِمَ من ظاهرةِ ((المأزق الشعري)) التي يتنـــاولها الـــنَّـــقدُ الحديث اليوم[١٣٣] . ولعلَّ بيتَ طرفـــةَ البكـــريِّ يجسِّدُ لنا هذه الروحَ التي تأصَّلت في الشَّاعر الجاهلي :

وَإِنَّ أَحسَنَ بَيتٍ أَنتَ قائِلُهُ بَيتٌ يُقالُ إِذا أَنشَدتَهُ صَدَقا

وقد تبيَّنَ لنا من خلال هذه الدِّراسةِ أنَّ هذا اللونَ من الكتابةِ فـــي الوصايا والحكم قد خالطَ القصيدةَ العربيَّةَ وغدا مكونًا لا ينفصل عنهـــا ،

ولهذا فلا عجب أن يصبحَ بابُ الوصايا والحكم قاسماً مشتركاً بين قصائدِ الجاهليين وإن اختلفت مضامينُ القصائد بين شاعرٍ وآخر. بيدَ أنَّ تقليصَ أبوابِ الحكم والوصايا في هذا الشِّعرِ الجاهلي في عدَّةِ محاورٍ لا يعني ألبتةَ أنَّ القصيدةَ الجاهليةَ لا تستطيع فكاكاً من هذا التصوير الذي وضعناه عند دراستنا لأبوابِ الحكم والوصايا في الجزء الأول من هذه الدراسة ؛ فكلُّ دراسةٍ جديدةٍ لهذا الشِّعرِ يمكنُ أنْ تضيفَ أبواباً جديدةً إلى موضوع الوصايا والحكم في القصيدة الجاهلية.

إنَّ ثراءَ هذه المضامين الشِّعرية الجاهليَّة عائدٌ في المقام الأول إلى صدقِ التَّجربةِ وواقعيتها في الشِّعر الجاهلي ، وهو ما عبَّر عنه أحدُ أعلامِ النظريَّةِ المدرسيَّةِ في دراسةِ الأدبِ العربي بزعمه أنَّ هؤلاءِ الشُّعراء اتخذوا الواقعية مذهباً ونبراساً قبل ظهورِ هذا اللونِ من الكتابةِ الأدبيةِ في أوروبا ، وقبلَ ظهورِ الكتَّابِ المعروفينَ بالواقعيين من أمثالِ زولا وتولستوى(١٣٤) .

لقد تبين لنا أيضاً من خلالِ هذه الدراسة أنَّ البناءَ الفنيَّ المتعلقَ بابِ الوصايا والحكم لدى الجاهليين – على الرغم – من تفكُّكه وتباينه من شاعرٍ إلى آخر إلاَّ أنَّهُ يمكنُ أن يخضعَ لنوعٍ من ثنائيةِ البناءِ الفني في التركيب ، ويتجلى هذا البناءُ الفني في إحدى صورتين : إمَّا بناءٌ فنيٌّ خالصٌ ، وهو ما يمكن أن نلحظه في المقطوعاتِ الشِّعرية المستقلة ، وإمَّا في ثنايا القصيدة الجاهلية ، وهذه الصورة وتلك تشهد ان بوجودِ بناءٍ فنيٍّ محكمٍ.

ولقد تبين لنا أخيراً أنَّ أسلوبيةَ القصيدةِ الجاهليةِ في بابِ الوصايا والحكم ترتكزُ على ستةِ محاورَ رئيسةٍ : الإنشائية، والشَّرطية ، والتقريريَّة ، والتصويرية التجسدية ، والبديعية غير المتكلفة ، والتكرارية.

هذا ، ولا يمكن بأي حالٍ أنْ نزعمَ أنَّ قراءتنا لهذا اللون من الوصايا والحكم في القصيدة الجاهلية قد ألمت بكلِّ جنباتِ الموضوعِ ؛ فكلُّ قراءةٍ نقديةٍ – بحسبِ ما فيها من معاييرَ وتوجيهات – قد تميطُ اللثامَ عن جوانبَ ومضامين وأساليب لم تتضح حتى الآن ، فالنصُّ الجاهلي متعددُ المضامين ، وإخضاعُه لأيِّ قراءةٍ ينبئُ دومًا بحداثةِ المضامين والأساليبِ التي تخالطه ، فالمبدع أشبه بمن يلقي عملَه الأدبي في عرضِ بحرِ هذا المتلقي وذاك ، فيعكفونَ على تأويله كلٌّ وفقَ معاييره وأدواته.

الهوامش

(١) الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني ، دار الفكر ، القاهرة ١٠/ ٢٩٩.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان ، دار الهلال ، القاهرة ٢٩/١ .

(٣) نظرية الأدب في ضوء الإسلام ، د. عبد الحميد بوزوينة , دار البشير ، عمان، ١٩٩٠م ، ١/ ٤٢ .

(٤) مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي ، د. مكارم الغمري ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١٠٠ ، الكويت ، نوفمبر ١٩٩١م ، ص ٢٧٤ .

(٥) تاريخ الأدب العربي في الجاهلية وصدر الإسلام ، محمد حسين درويش ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٩٧٤م ، ص ٤١.

(٦) المعمرون والوصايا ، أبو حاتم السجستاني ، تحقيق عبدالمنعم عامر ، القاهرة ١٩٦١م ، ص٨٩.

(٧) شعر زهير بن أبي سلمى ، تحقيق د. فخر الدين قباوة ، دار الآفاق الجديدة ، ط ٣ ، بيروت ١٩٨٠م ، ص ٣٥.

(٨) السَّمَوألُ بنُ غَريضِ بنِ عَادِيَاء اليهودي (نحو ٦٥ق.هـ) شاعرٌ حكيمٌ ، من بيتِ شعرٍ ورئاسةٍ وشرفٍ ، من أهلِ تيماءَ ، وصاحب الحصنِ الأبلقِ التاريخي، اشتُهِرَ بقصةِ وفائِهِ لامرئِ القيسِ . انظر : طبقات فحول الشعراء ٢٧٩/١ ، والأغاني ٦٩/٩ ، وسمط اللآلى ٥٩٥/١.

(٩) ديوان السموأل بن عادياء ، شرح وضبط د. عمر فاروق الطباع ، دار الأرقم ، ط١ ، بيروت ١٩٩٧م ، ص ٤٧.

(١٠) ديوانه طرفة بن العبد ، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال. الطبعة الثانية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ودائرة الثقافة والفنون ، البحرين ٢٠٠٠م ، ص ٢٦.

(١١) ديوانه ٢٦. ويعتام: يختار ، والعقائلُ : جمعُ العقيلة ، وهيَ المرأةُ الكريمةُ النسبِ ، والفاحشُ المتشدِّدُ : الشَّديدُ البُخلِ ، والطِّوَلُ : الحبلُ الطَّويلُ تُربطُ بهِ الدَّابَّةُ ؛ لترعى.

(١٢) ديوانه ٣٢.

(١٣) ديوان عنترة بن شداد ، تحقيق محمد سعيد مولوي ، الطبعة الثانية. المكتب الإسلامي. بيروت ١٤٠٣هـ. ص ٦٧.

(١٤) ديوانه ٩٩. واقني : الزمي .

(١٥) ديوان حاتم الطائي . تحقيق عادل سليمان جمال. الطبعة الثانية . مكتبة الخانجي . القاهرة ١٩٩٠م. ص ٥٧.

(١٦) أبو زياد ، من بني سعد بنِ ثعلبةَ ، الأسديين ، الشاعرُ الجاهليُّ الحكيمُ المُعمَّرُ ، عاصرَ طرفةَ بن العبدِ ، وله مع امرئ القيس مناظراتٌ ومناقضَات ، اتصلَ باللَّخميين وقتلوه . انظر : الشعر والشعراء ٢٦٧/١ ، والأغاني ٨٧/٢٢ ، وسمط اللآلئ ٤٣٩/١.

(١٧) ديوان عبيد بن الأبرص . تحقيق حسين نصار . الطبعة الأولى . مصطفى البابي. القاهرة ١٣٧٧هـ. ص ٤٩.

(١٨) تاريخ آداب اللغة العربية ١٠٢/١.

(١٩) السَّراةُ : جمعُ السَّريِّ ، وهو الشَّريفُ ذو المروءة . والمضَارِبُ : جمعُ مَضْرِبٍ ، وهو حدُّ السَّيف.

(٢٠) القنا : الرِّماح ، والقَواضِبُ : السُّيوفُ القَواطِعُ.

(٢١) الخطِّيُّ : نسبة إلى بلدةِ الخطِّ ، وهو مرفأُ السُّفُنِ بالبحرين ، والعُرْضُ : الجانب والناحية.

(٢٢) ديوانه ١٥.

(٢٣) ديوانه ٧٠.

(٢٤) ديوانه ٨٧ .

(٢٥) ديوانه ١١٠.

(٢٦) ديوانه ٥٤.

(٢٧) شعر النابغة الجعدي. تحقيق عبدالعزيز رباح. الطبعة الأولى. المكتب الإسلامي. بيروت ١٩٦٤م. ص ٢٠٢.

(٢٨) أبو جُبَيل البُرجُميُّ التَّميميُّ ، سيِّدٌ حكيمٌ شاعرٌ جاهليٌّ ، عاصرَ النَّابغةَ الذُّبياني ، وحاتمًا الطائيَّ ، و مات قبلَ أن يدركَ الإسلام ، له مفضَّليتـــانِ عاليتـــان ، واختارَهما الأصمعيُّ أيضًا. انظر : الأغاني ١٤٥/٧ ، والشـــعر والشـــعراء ١٦٥/١ ، ومعجم الشعراء ٣٢٥ .

(٢٩) المفظليات ٣٨٥.

(٣٠) حُرثَانُ بنُ الحَرثِ بنِ مُحرِّثٍ ، الشَّاعرُ الفارسُ الحكيمُ الجاهليُّ المعمَّرُ ، فقـــد قيلَ : إنَّهُ عمِّرَ ١٧٠ سنة. انظر : الشعر والشعراء ٧٠٨/٢ ، والاشتقاق ١٦٣ ، والأغاني ٢/٣ ، والمؤتلف ١١٨.

(٣١) ديوان ذي الإصبع العدواني.جمعه وحققه عبدالوهاب العدواني ومحمد الدليمي. الموصل ١٩٧٣م. ص ٧٤. والقُرومُ : جمعُ قَرمٍ وهـــو الفحـــل أو السـيِّد المعظم. والخصيل : كلُّ لحمةٍ فيها عصَبٌ. والتَّليلُ : التُّرابُ.

(٣٢) رحلة الأدب العربي إلى أوربا ، محمد مفيـــد الشوباشـــي ، دار المعـــارف ، القاهرة ، ١٩٦٨م ، ص ١٤٠.

(٣٣) ديوانه ٢٢١.

(٣٤) ديوانه ١٩١. والخبَلُ: ضربٌ من الجن.

(٣٥) ديوانه ١٣.

(٣٦) عائذُ بنُ مُحْصِنِ بنِ عبدالقيسِ (– نحو ٣٥ ق.هـــ) شاعرٌ بحراني جـــاهليٌّ فحلٌ ، مدحَ المنذرةَ ، في شعره حكمةٌ. انظر : الشعر والشـــعراء ٣٩٥/١ ، والاشتقاق ١٩٩ ، ومعجم الشعراء ٣٠٣ ، وسمط اللآلئ ١١٣/٩.

(٣٧) ديوان المثقب العبدي . تحقيق حسن كامل الصيرفي . الطبعة الثانيـــة. معهـــد المخطوطات العربية . القاهرة ١٤١٨هـــ. ص ٢٣٣.

(٣٨) أبو ربعي ، عمرو بنُ سِنان بن سمي المنقريُّ التميميُّ (– ٥٧هـــ) والأهتـــمُ أبوه ، سيِّدٌ خطيبٌ شاعرٌ حكيمٌ مخضرمٌ ، وهو الذي قال له الرسولُ صلـــى الله عليه وسلم بعد سماعه : إنَّ من البيانِ لسحرًا. انظر : الشعر والشـــعراء ٤٠١/١ ، والإصابة ٨٦/٧ ، ومعجم الشعراء ٢١ ، والأغاني ٨١/١٤.

(٣٩) شعر الزبرقان بنُ بدر وعمرو بن الأهتم ، تحقيق د. سعود محمود عبد الجابر ، ط١، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٤م ، ص ٩٢. وذو عيال : يعني الوفود من الأضياف ، وذوي الحاجات.

(٤٠) شاعرةٌ جاهلية ، من الموصوفات بالكرم ، لقبت بالعوراء لحولٍ في عينيها. انظر : الحماسة ٢٩٦/٢ ، والمؤتلف والمختلف ١٣٤.

(٤١) الحماسة . أبو تمام الطائي . تحقيق عبدالله عسيلان. جامعة الإمام محمد . الرياض ١٤٠١هـ.ص ٢٩٦. والجُدُدُ : صرار الليل.

(٤٢) صيفيُّ بنُ عامر بن جشم الأوسي الأنصاري (- ١هـ) شاعرٌ خطيبٌ جاهليٌّ حكيمٌ ، سيد الأوسِ وقائدهم في زمنه ، مات بالمدينة على دينِ إبراهيم عليه السلام. انظر : الأغاني ٦٧/١٧ ، والحيوان ١٩٧/٧ ، الكامل ٤٦/٢.

(٤٣) ديوان أبي قيس صيفي بن الأسلت. جمع وتحقيق حسن باجودة. دار التراث. القاهرة ١٣٩١هـ. ص ٧٧.

(٤٤) ديوانه ٨٨.

(٤٥) جرير بن عبد العزى ، أو عبد المسيح ، من بني ضُبيعة من ربيعة ، شاعرٌ جاهليٌّ بحرانيٌّ ، وهو خال طرفة بن العبد ، ونديمُ عمرو بن هند ، وصاحبُ الصحيفة ، مات ببصرى الشّام. انظر : الشعر والشعراء ١٧٩/١ ، والأغاني ١٢٥ ، وطبقات فحول الشعراء ٤١/١ ، والخزانة ٤٤٦/١.

(٤٦) ديوان المتلمس الضبعي ، تحقيق محمد التونجي ، الطبعة الأولى ، دار صادر.بيروت ١٩٩٨م. ص ٨٢.

(٤٧) ديوانه ٦٠.

(٤٨) ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٤ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤م .ص ٣٩.

(٤٩) ديوانه ٩٠.

(٥٠) ديوان النابغة الذبياني . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . الطبعة الثانية. دار المعارف . القاهرة ١٩٨٥م. ص ٤٣. والمَطْعَمَةُ : ما يؤكلُ. والدُّبَاحُ : ألم في الحلق.

(٥١) ديوان الأعشى الكبير ، ميمون بن قيس ، شرح وتعليق محمد محمد حسين ، مكتبة الآداب ، الإسكندرية ١٩٥٠م . ص ١١٣.

(٥٢) ديوانه ٢٢١.

(٥٣) ديوانه ٢٩. و البتَاتُ : الزَّادُ.

(٥٤) ديوانه ٤١. و الهبيتُ : الجبانُ الذَّاهبُ العقل. وهمَّةٌ للسَّوائد : غرضاً للسَّادة.

(٥٥) ديوانه ١١٠.

(٥٦) ديوانه ٢٣٠ــ ٢٣٣. يكشر : يضحك حتى تظهر أسنانه . و الوَقَرُ : ثقلٌ في الأذن ، أو هو الصَّمَمُ.

(٥٧) أبو زهير ، ثابتُ بنُ جابر بن سفيان الفهمي (نحو ٨٠ ق.هـ) الصعلوك الفاتكُ العدَّاءُ ، شاعرٌ تهاميٌّ فحلٌ ، وقد جاءه هذا اللقب من أمه التي رأته مرة يخرج حاملا سيفه ، فقالت لمن سألها عنه : لا أدري تأبَّط شراً وخرج . انظر : الشعر والشعراء ٣١٢/١ ، والأغاني ٢٠٩/١٨ ، والاشتقاق ٢٦٦ ، وسمط اللآلي ١٥٨ .

(٥٨) ديوان تأبط شرا ، جمع وتحقيق علي ذو الفقار شاكر ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٤م . ص ٨٦. وقريعُ الدَّهر: المجرِّبُ. والحُوَّلُ : الشديدُ الاحتيال.

(٥٩) ابن قيسِ بنِ خالدٍ الذُّهلي الشَّيباني ، سيِّدٌ شاعرٌ جاهليٌّ ، ولي أمر الطَّف والأبلة لكسرى ، وضمن بني بكر بن وائل عنده ، فأحدثت بنو بكر ما كان سبباً في حبسِ قيسٍ ويومِ ذي قار ، ومات في سجن كسرى. انظر : تاريخ الطبري ٤٧٨/١ ، والمعارف ١٠٠ ، والأغاني ١١٨/٢ ، ومعجم الشعراء ٢٠١.

(٦٠) معجم الشعراء . محمد بن عمران المرزباني . مطبوع مع المؤتلف والمختلف للآمدي . الطبعة الثانية. مكتبة القدسي. القاهرة ١٩٨٢م.ص ٢٠١.

(٦١) لقيط بن يعمر بن خارجة الإيادي ، سيِّدٌ مقدَّمٌ وشاعرٌ فحلٌ ، من أهل الحيرة ، تولى الكتابة لكسرى سابور ، علمَ بنيَّةِ كسرى غزوَ قومه فأرسل إليهم قصيدةً

ينذرهم ، علم كسرى بصنيع لقيط فقطع لسانه ثم قتله. انظر : الأغاني ٢٣/٢٠ ، والشعر والشعراء ١٩٩/١ ، والاشتقاق ١٠٤ ، مختارات ابن الشجري ١٨.

(٦٢) ديوان لقيط بن يعمر الإيادي ، تحقيق محمد التونجي ، دار صادر ، ط١ ، بيروت لبنان ١٩٩٨م. ص ٧٤.

(٦٣) العِبَادِي ، التميمي (– نحو ٣٥ ق.هـ.) الشاعر الكاتب ، من دهاة العرب في الجاهلية ، قيل : إنَّهُ أولُ مَن كتب بالعربية . انظر : طبقات فحول الشعراء ١٤٠/١ ، والشعر والشعراء ٢٢٥/١ ، والأغاني ١٧/٢.

(٦٤) ديوان عدي بن زيد العبادي . تحقيق محمد جبار المعيبد . وزارة الثقافة والإرشاد . بغداد ١٩٦٥م. ص ١٠٢.

(٦٥) التصريدُ : شُربُ الخمرِ صرفًا ، وهو أيضًا : التقليلُ.

(٦٦) طابق المقيَّدُ : قارب خطوه ، وهو كنايةٌ عن كبر السن ؛ أي صار من الكبر يمشي كالمقيد.

(٦٧) تلع : تجزع. وتتزند : تغضب.

(٦٨) شعوب : المنية. والملحد: القبر.

(٦٩) يُلهَّدُ : يدفعُ في ذِلة وصغارٍ.

(٧٠) انظر القصيدة كاملةً في ديوانه ٥٢.

(٧١) تَوَقَّصَ : شدَّدَ وطأه في السير، كأنه يَقِصُ ويكسِرُ ما تحته . وصِنْدَد :جبل في تهامة.

(٧٢) ديوانه ٧٢.

(٧٣) السم الثميل: الذي أنقع فبقي وثبت.

(٧٤) انظر القصيدة كاملة في المفضليات ٣٨٤ ، والأصمعيات ٢٢٩ .

(٧٥) الطَّبِنُ : الحاذقُ الفَطِنُ .

(٧٦) اللُّعنةُ : الذي يلعنه الناسُ كثيرا.

(٧٧) الباهش : الفَرِحُ ، يريد الذين يأتونه يلتمسون عطاءه.

(٧٨) المفضليات ٤٠٩ .

(٧٩) انظر القصيدة كاملة في ديوانه ٧٤.

(٨٠) ديوانه ٩٧ . و المجلَّحَةُ : الأكولةُ وهي المصممة على الشيء.

(٨١) عرقُ الثَّرى : آدم عليه السلام ؛ لأنَّه أصلُ البشَرِ.

(٨٢) أنضي : أهزِلُ. والأمَقُّ: الطويلُ.

(٨٣) اللُّهامُ المجرُ : الجيشُ الكثيرُ. والقُحمُ : جمعُ قحمةٍ من الاقتحامِ لتحصيلِ الشرفِ والمجدِ. والرِّغابِ : الواسعةُ.

(٨٤) الشَّبا : الحدُّ.

(٨٥) ديوانه : ٩٨. والكلاب: اسم وادٍ سمِّي باسمه يومٌ من أيَّامِ العربِ المشهورةِ ، والقتيلُ عمُّه شرحبيل.

(٨٦) الآجن: المتغير اللون والطعم. ويقشب: يدمج ويخلط.

(٨٧) ديوانه ١٢ .

(٨٨) ديوانه ٣٢ . و التَّلدُّدُ : الإقامةُ في المكانِ.

(٨٩) ديوانه ٣٣ .

(٩٠) ديوانه ٦٧ . و الحصاةُ : العقلُ.

(٩١) ديوانه ٢٢٧ .

(٩٢) الذيب: مخففة من الذئب ، والمقصود – هنا – الدَّهر.

(٩٣) ديوانه ٤١ .

(٩٤) ديوانه ٨٥ .

(٩٥) ديوانه ١٩٩ .

(٩٦) ديوانه ٢٠٢ .

(٩٧) ديوانه ١٠ .

(٩٨) ديوانه ١١ .

(٩٩) ديوانه ١١٠ .

(١٠٠) ديوانه ١٣٣ .

(١٠١) ديوانه ١٣.

(١٠٢) ديوانه ٢٥ .

(١٠٣) ديوانه ٣٥. والزِّجاجُ : جمع زِجٍّ ، وهو السِّنانُ الذي في أسفلِ الرُّمح ، والعوالي : جمع عالية ، وهي أعلى الرُّمحِ ، ويكونُ فيها السِّنان . واللَّهذَمُ : الحادُّ .

(١٠٤) ديوانه ٣٦.

(١٠٥) ديوانه ٢٠٩. و المُعْصِمُ : الذي يُمسِكُ بزِمامِ البعيرِ ؛ خوفًا من السُّقوطِ.

(١٠٦) ديوانه ٢١٧.

(١٠٧) ديوانه ٥٤.

(١٠٨) ديوانه ٥٩.

(١٠٩) المفضَّليات ٣٨٤.

(١١٠) ديوانه ٣٩.

(١١١) ديوانه ٨٣.

(١١٢) ديوانه ٥٢.

(١١٣) ديوانه ٣٢.

(١١٤) ديوانه ١١٠.

(١١٥) ديوانه ١٣٠.

(١١٦) ديوانه ٤٧.

(١١٧) ديوانه ٢٧.

(١١٨) ديوانه ٣٢.

(١١٩) ديوانه ٦٠.

(١٢٠) ديوانه ١٠٦.

(١٢١) ديوانه ١٩١.

(١٢٢) ديوانه ٢٢٨.

(١٢٣) ديوانه ٨٢.

(١٢٤) ديوانه ٢٨.

(١٢٥) ديوانه ٤٣. والقَتَبُ : الرَّحلُ ، وهو بكسرِ التَّاءِ : السَّريعُ الغضبِ.

(١٢٦) المفضَّليات : ٣٨٤.

(١٢٧) ديوانه ٢٢٩.

(١٢٨) ديوانه ٧٤.

(١٢٩) المفضَّليات : ٣٨٤.

(١٣٠) ديوانه ٢٠٩.

(١٣١) ديوانه ٨٤.

(١٣٢) النقد المنهجي عند العرب ، محمد مندور ، نهضة مصر ، القاهرة ، ص ٢٤.

(١٣٣) انظر في هذا الشأن : برج بابل : النقد والحداثة الشريدة ، د. غالي شكري ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٥ ، ص ٤٩ .

(١٣٤) تاريخ آداب اللغة العربية ٨٦/١ .